

على حافة الجنة

قصص

إيهاب فاروق

إهداء

إلى العجوز الجميلة
إلى الأم التي ضحى بها أولادها
إلى البكر التي ترملت قبل الأوان
إليها هي فقط أقول
آسف
سامحينا
يا أم الدنيا

إيهاب فاروق

(1)
على حافة الجنة*

* في سبتمبر ٢٠١٣

مضت ثلاثة أيام بلياليها، ولم يحترق القبر بمن يرقد فيه، لا بُدَّ أن هناك خطأ ما في الموضوع، هل كان حكم أهل البلدة قاسياً إلى هذه الدرجة؟، وهل يكفي أن تغير اسم شخص ما، لكي يتحول قبره إلى حفرة من حفر النار؟!، كان أهل البلدة هم الذين قد أصدروا الحكم، أصدروه حتى قبل أن تتعقد المحكمة، حكموا فقط بما رأوه وانتهى الأمر، هذا الرجل "كافر"، ومثواه إلى جهنم وبئس المصير!!

مات "المحروقي" بعدما فقد كل شيء، فقد حتى اسمه الحقيقي "مدني"، الذي نسيه الناس وربما نسيه هو نفسه، في ظل كل تلك الإشاعات التي انتشرت عليه، فهذا الرجل محروق محروق لا محالة في نار جهنم، ولهذا سموه المحروقي، حتى إن الأطفال عندما كانوا يتشاجرون، كانوا يدعون على المعتدي منهم بأن يلقي نفس مصير المحروقي، وعندما يحلف أحدهم على شيء يُصر الآخرون على أن يضيف إلى يمينه عبارة "إلهي أندفن جنب المحروقي لو كنت بكذب"، حتى يكتوي الكاذب بنار العذاب، لمجرد أنه عُش في لعب البلي، وأخذ لنفسه أكثر من الآخرين، أو أنه قد أغمض عيماً وترك الأخرى مفتوحة في لعبة الاستغماية.

لكن البعض ظل يؤكد أن القبر وإن لم يشتعل ناراً حتى الآن، إلا أن جدرانه ظلت حامية بنار الجحيم، وهذا هو ما أكده كل من جس القبر في عز الظهر، فمن ذاك الذي يجروء على الاقتراب من هذا القبر في ظلام الليل، أو حتى عندما تغرب الشمس من بعد صلاة المغرب، ذلك القبر الذي تم بناؤه على عجل، وخلال يوم واحد فقط، ليدفن فيه المحروقي، بعد أن

رفض غالبية أعيان البلد وشيوخها أن يتم دفنه في مقابر المسلمين، ولا توجد مدافن للصدقة في البلد، وحتى لو كانت هناك مدافن للصدقة، فما ذنب أولئك المساكين المدفونين فيها، ليرقد المحروقي بين أجسادهم مشيعاً بلغته.

وكادوا أن يلقوا بجثمان المحروقي خارج البلد، لولا أن بعض العقلاء قد حذروا من ذلك، حتى لا تكون فتنة غير مأمونة العواقب، واختلف الجميع على هذا الأمر بينما الجثمان ما زال مسجى على الطاولة بلا تغسيل، ولا يمكن أن يتركوه هكذا بلا دفن، فأكرام الميت دفنه حتى ولو كان هذا الميت هو المحروق المحروقي، الذي كاد أن يحرق البلد كلها بكفره حياً، ويريد أن يحرقها كذلك بنار الفتنة ميتاً.

لم يكن هذا الحكم، الذي أصدره أهل البلد على المحروقي يستند إلى أي سند شرعي، فقد كان الرجل مثله مثل كل أهل البلد، يعتقد الصلاة في الجامع الكبير، ولو على الأقل في يوم الجمعة، بل ويحرص على الجلوس في الصف الأول، إنما ظل الصف الأول محجوزاً دائماً لكبار وأعيان البلد، الذين تعرفهم من عباةاتهم السوداء ومسابحهم الياقوت الطويلة، وكثيراً ما كان أتباعهم يقومون بدفع المحروقي بخشونة، حتى يترك مكانه وهو الجالس فيه من قبل الأذان، حتى يرجع إلى الصفوف الخلفية، والسبب المعلن هو ملبسه الرثة الملوثة ببقايا الطين، فقد كان يأتي بها للصلاة مباشرة من الغيطان، لكن المحروقي بات يُصر مؤخراً على التشبث بحقه في الصف الأول، ويرفض القيام لأحد مهما كان، فعدم امتلاكه لعباءة جوخ وجلباب كشمير، أو حتى لمسبحة طويلة من الخرز أو الياقوت،

لا يعني أبداً أن يتم تجنيبه إلى الصفوف الأخيرة في بيت من بيوت الله، حتى ولو لم يجهد نفسه في نظافة ثيابه الملوثة بالطين، والتي لا يمتلك غيرها، فقد خلقه الله من الطين كما خلق كذلك هؤلاء الأعيان، الذين يريدون أن يحافظوا على أماكنهم بالقرب من القبلة، حتى ولو تأخروا عن الصلاة، فإذا أتوا اخترقوا الصفوف وقفزوا من فوق الرؤوس، ليجدوا أماكنهم وقد حُفظت لهم في الصفوف الأولى، وربما اعتقدوا أنها ستُحفظ لهم كذلك في الجنة!! لكن وحده المحروقي هو الذي أصبح ينازعهم في ذلك مؤخراً.

ولو أن موضوع الصلاة في حد ذاته، لم يكن هو الدافع الحقيقي لهؤلاء الأعيان، حتى يبعدوا المحروقي ومن على ساكنته من صدارة الصفوف، لكنه الخوف من أن يعرف هؤلاء المتتبعون ما يحدث في هذه الصفوف من ترتيب لشئون البلد، تلك الصفوف التي تتصدى لجمع التبرعات، وتقتسم أموال صناديق النذور، إلى الشهادة على عقود الزواج، التي يكون أغلبها بغرض المصلحة، وإن تغلف الأمر بصورة شرعية، وكذلك عقد جلسات الصلح بين المتخاصمين، أو حتى بسبب رغبة البعض في الوجود والظهور بمظهر العليم ببواطن الأمور، خصوصاً مع قدوم موسم الانتخابات، وتعدد زيارات المرشحين للبلد في يوم الجمعة، والتي تبدأ دائماً بالصلاة في المسجد الكبير، ثم بخطبة عصماء في محراب المسجد، عن ذلك المرشح المؤمن الذي سيأتي بكل الخير للبلد، ثم تنتهي الزيارات حول الولائم العامرة بما لذ وطاب من أصناف الذبائح، والتي يتصدرها بالطبع رواد الصفوف الأولى من الأعيان، ثم

تنعقد التربيطات الانتخابية بمباركة من شاغلي الصف الأول، الأعيان .. الذين يصبر المحروقي حالياً على أن يتواجد بينهم.

حاول أتباع الأعيان منع المحروقي من الجلوس بشتى الطرق كما اعتادوا قديماً، إلا أنهم باتوا ييأسون منه مؤخراً، فالرجل على غير العادة قد بات صلب المراس، ولم يعد يتنازل عن حقه هذا بسهولة، فكانوا يتركونه جالساً وفي عيونهم نظرات ذات مغزى، نظرات كان أقلها يمتلئ بالحقد وأكثرها يتوعد بالانتقام، فمن هذا الرجل وما قيمته حتى يسوق لهم الهبل على الشيطنة، فقررروا أن يتلاشى عنه ذلك الهبل رويداً رويداً، حتى لا تبقى للمحروقي أمام الناس إلا الشيطنة.

بدأت خطة شيطنة المحروقي من الصف الأول، ورغم أنه كان يجلس بينهم ويسمع، لكنه لم ينتبه أبداً لتلك المخططات التي ثحاك له، ربما لأنه كان يهتم بأشياء أخرى على رأسها النظر لملابسه الرثة كل فترة، كلما قارنها بما يلبس من يجلس حوله من عباات غالية، ورغم أنهم قد تأكدوا من غفلته هذه، إنما ظل خوفهم الواضح من أذنيه، تلك التي يمكنها أن تتسمع حتى ولو تكن لم تنظر لهم عيناه، خصوصاً أن لسانه لم يكن له رابط، ولا ينسى له البعض منهم عندما لسن عليهم أثناء عملية بيع إحدى بنات البلد الصغيرات، لأحد شيوخ الخليج الطاعنين في السن، تحت مظلة الزواج، ففضح هؤلاء الذين تقاضوا مبلغاً مالياً، لتزوير سن البنات الصغيرة في شهادة الميلاد، بل وسلموا شهادة الميلاد للمأذون، وتسلم المزور النقود ووضعها في جيب جلبابه "السيالة" وهو يجلس في الصف الأول، وبالقرب من القبلة، دون أدنى مراعاة لحرمة المكان، ولهذا كانت الخطة

تعتمد بالأساس على المحروقي نفسه، الذي لا يتحكم في أعصابه ويشتم ويسب لأتفه الأسباب.

كان للمحروقي تاريخ طويل مع العنف، حتى إنه قتل حماره ذات مرة، عندما ضربه بالحجر فوق رأسه، ورغم أن المحروقي نفسه قد ندم كثيراً على تلك الفعلة، وبكى بكاءً حاراً بجوار جثة الحمار، فظهر ذلك الحمار كان يأتي للمحروقي بنصف رزقه، لكن المحروقي ظل يحرص دائماً على ألا يظهر بضعفه هذا أمام الناس، ولهذا لم يتوقف عن فظاظته مع الحيوانات، وكذلك مع البشر، خصوصاً هؤلاء الملاعين الصغار، الذين ظلوا يشتمونه بقولهم "يا محروقي يا كافر"

ثم يفرون هاربين تاركين المحروقي يحترق غضباً.

ورغم أن أحداً لم يكن يعرف بالضبط، من هو مصدر إشاعة كفر المحروقي هذه، إنما انتشرت الإشاعة بسرعة لهيب النار في كومة قش جافة، ولم تعد ملابس المحروقي الرثة الملوثة بالطين، هي السبب الأهم لإبعاده عن الصف الأول، فقد صار هناك سبب أكبر وأعظم، فهذا الرجل "كافر" ولا يصح أن يتواجد هكذا في صدارة صفوف الصلاة مع المؤمنين، فتم دفعه بالقوة نحو الصفوف الخلفية، عساه يتقي الله ويرتدي عباءة تقواهم فيقبلوه بينهم، وبعد أن كان يسمع أحاديث الكبار وأسرارهم في الأمام، أصبح يستمع في الخلف إلى تلميحات

الصغار وتغامزهم عليه، وتساؤلهم المقيت عن سبب وجوده أساسا في المسجد، فصار يستشيط غضبًا ويقول كلامًا يؤاخذ عليه، حتى إنه قد حلف يومًا بالألا يدخل لله بيتًا، طالما أن هؤلاء موجودون فيه، وهكذا كلما ازداد احتراق المحروقي غضبًا، ازداد كفره في نظر الجميع.

مات المحروقي فجأة أو ربما مات غيلة، لم يكن أحد يهتم بذلك، فالمهم أنه قد مات والسلام، وتخلصت البلدة كلها من لعنته، بعد أن تطاول على بيت من بيوت الله، وحلف بالألا يدخله، وهكذا ضاعت بقية الجملة "طالما هم فيه"، وتطاول كذلك على الجميع كبيرهم قبل الصغير، لكن الصغار غالبًا ما يسامحون وينسون الإساءات، أما الكبار فيعتبرون أن التطاول على ذاتهم هو التطاول على نظام الكون نفسه، فهم يبنون لكرامتهم كعبة يصبح الحج إليها فرضًا واجبًا، ولا حجة فيها لغير المستطيع، فأخرجوا المحروقي من زمرة المؤمنين بسنة الحياة، التي يتسيدها الكبار حتى في الصلاة، إلى زمرة الغاوين في الدنيا والهالكين في الآخرة.

دُفن المحروقي في قبره الجديد، والذي بُني على أطراف جبانة البلد، بعيدًا عن كل القبور، وبعيدًا كذلك عن كل أشجار التوت التي تظللها من حر الشمس، والتي يعتليها الصغار لقطف التوت نهارًا، وعيونهم تترقب احتراق مقبرة المحروقي ما بين ساعة وأخرى، لدرجة أن أحدهم قد سمع صوتًا غريبًا لم يتبين مصدره، فاعتبره صوت استغاثات المحروقي وهو يئن

في قبره من العذاب، حتى شاهد قطة سوداء وهي تفر من خلف المقبرة، عندما طاردها أحد الكلاب الضالة فانقطع الصوت.

انتشرت أدخنة النيران في سماء البلدة، النائمة من بعد صلاة العشاء، كانت أسنة الذهب ترتفع من عند المقابر، هكذا قال أحد الساهرين القلائل الذين شاهدوها في تلك الساعة، فانطلق النفير في البلد وأخبر الداني منها القاصي، فيبدو أن قبر المحروقي قد احترق أخيراً، فتهلل الجميع وأتلج الخبر صدورهم المحترقة، إلا أنهم قد امتنعوا عن الذهاب للمدافن لمشاهدة الحريق حتى لا يبيوعوا بلعنة قد بقيت هنا أو هناك، ولم تنل قبر المحروقي الكافر، وإن كانوا قد اعتبروا حريق القبر بجوار مقابرهم، عقاباً من السماء لهم، لأنهم لم يحرقوا جسد المحروقي بأنفسهم عندما مات، بل ودفنوه هكذا بجوار قبور المؤمنين، وعسى الله أن يظهر قبور موتاهم بهذا الحريق.

طلع النهار وأهل البلد في غاية السعادة، بعد أن ناموا مطمئنين، فقد تحققت النبوءة التي مست لب عقيدتهم، فلا يمكن أن يُترك كافر هكذا بلا عقاب إلهي، حتى ولو بعد موته ودفنه، ولو أن ذلك كما يرى البعض، كان يجب أن يكون بأيديهم هم، لا بيد السماء، والأجر والثواب عند الله، فانطلقوا ناحية المقابر ليستكملوا ذلك الأجر الذي فاتهم ثوابه.

كانت بقايا الحريق الكبير، لا تزال منتشرة في المكان، احترقت كل أشجار التوت ولم يبق فيها فرع أخضر، وانهارت معظم جذوعها الخاوية بفعل النيران، فعلا الوجوم وجوه أهل البلد جميعاً، بلغ الأسى والحسرة مداه، فقد احترقت مع أشجار

التوت كثير من قبور جبانة البلد، بل وتهدم معظمها من جرّاء سقوط الأشجار عليها، ووصلت النيران حتى للعظام الباقية في التراب، فاتهمكوا في تجميع بقايا العظام المحترقة، والتي اختلط بعضها ببعض، حتى لم يعد يُعرف منها عظام الشريف من عظام الصعلوك، ورغم أنهم لم يجهدوا أنفسهم لمعرفة أسباب الحريق، فقد أعمت لعنة المحروقي كل العيون، إنما الشيء الوحيد الذي فجعههم حقًا، كان بقاء قبر المحروقي على حاله، ولم تمسه نار، فلم يجد بعضهم بدءًا من أن يقول لنفسه معزيًا، حتى ولو أفلت المحروقي من نار الدنيا، فلتكفه نيران الآخرة!!

تمت ..

(2)
راديو ترانزيستور *

* في أكتوبر ٢٠١٣

جلس هادئاً في كشكه الصغير، الذي لا تتعدى مساحته متراً مربعاً واحداً، وهو يعرض في بطاريات الراديو الترانزستور الذي لا يفارقه، بعد أن ضعفت وانخفض صوته، ثم ركبها مرة أخرى، وبدأ يقلب في الموجات، لم يعد يطبق الاستماع إلى الأخبار، كما أنه لا يحب سماع الأغاني، أما مباريات كرة القدم فقد توقفت إذاعتها في الراديو، بعد أن توقف الدوري.

أدار المؤشر حتى استقر على إذاعة القرآن الكريم، الوقت طويلٌ ويمر بمنتهى البطء والملل، تذكر نصائح شيخه بأن يستغل دقائق الانتظار في الاستغفار، لكنها ليست دقائق، إنما ساعات وأيام وشهور، بل سنين، ولكن ماذا يفعل وهو مجبرٌ على ذلك، وليته كان يقف على خط من خطوط الحدود، ليحارب الأعداء في سبيل الله، لكن معظم من يقفون الآن على الحدود يقتلون، هكذا كان يردد زملاؤه في المعسكر، ولكن ليس بيد الأعداء، أهل الدين الواحد يقتلون بعضهم، وفي سبيل الله كذلك!!

الواسطة وحدها هي التي وضعت "مأمون"، الجندي المجند في الأمن المركزي، لكي يخدم في هذا المكان، بعد أن تقلب كثيراً في كل الشوارع، كانت تحمله في كل يوم سيارة نقل كبيرة، صندوق متحرك أخضر من صفيح صدئ، يُحشر فيه حشراً مع زملائه، يجربون فيه الإختناق قبل أن يوزعوه بالقنابل على أماكن المظاهرات، أعطوهم عصياً ودرعاً بلاستيكية، وأسلحة قديمة بلا ذخيرة، ليس مطلوباً منهم إلا أن يشكلوا حيطاناً بشرية، دروعاً تحمي من اختبيء خلفها ويتحزم

بطلقات الرصاص، تضرب العصي بلا هوادة، وتُضرب كذلك بلا هوادة، حتى يسمعون صوت طلقات الرصاص الحقيقية، وهي تنهال على الجميع من كل اتجاه، لتصيب من تصيب، وتقتل من تقتل، بلا تمييز!!

لكنه الآن قد صار على حافة الصراع، فبعد محاولات مضنية من أحد أقاربه الكبار، قد انتقل ليجلس آمناً في هذا الكشك الصغير، يحرس باب أحد المباني العتيقة، هو لا يدري حتى الآن ما الذي يحفظوه بداخلها، فقط كان مطلوباً منه أن يقف طوال خدمته "زهار"، على باب مغلق بقل وجنازير، ولا يبدو أن أحداً يدخله منذ زمن بعيد، لكنه كان يجلس من التعب على حجر تركه في الكشك زميله السابق، ولا ينفذ كلاهما الأوامر، حتى تنتهي نوبة الحراسة!!

التقى بشيخه في المرة الأخيرة قبل سفره الأخير، بعد أن صلى خلفه صلاة المغرب، كان الشيخ سعيداً جداً على غير العادة، خبر نقله إلى مكانه الجديد لم يمكث في طي الكتمان كما أمر الكبير، أصحاب الوساطات يبغضون التشهير بخدماتهم الحقيقية، وإن ظلوا يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، لم يخفه الشيخ سرّاً بأنه كان يتألم في كل يوم، عندما يتذكر أنه يخدم ضمن جحافل الباطل، التي تحارب دين الله أن يُمكن في أرضه، لكنه قد طمأنه بأنه كان في حكم المضطر، أو في حكم الأعمى الذي يحمل حملاً إلى حيث لا يدري، ولهذا ليس عليه من حرج، أما الآن وبعد أن اقتصر الأمر معه على مجرد الجلوس في علية صغيرة، فلا إثم عليه، وعندما تقوم دولة الحق على أرضها، فسوف يكون جندياً من جنود الله ليحارب في سبيله،

هكذا دعا له الشيخ في درسه الحاشد الكبير، الذي يعقده لمريديه بين صلاتي المغرب والعشاء.

غفلت عيناه لحظة، انخفض صوت الراديو الذي يجعله مستيقظاً أثناء الخدمة، صار "الكانتين" يلتهم كل راتبه الضئيل، إما أن يشتري بطاريات أو طعاماً يكفيه شر زيت الكافور الراقد في "قازانات" التعيين، لا بأس من النوم إذا فلن يمر عليه أي تفتيش، فمن يجروا على المرور في مكان ناءٍ شوارعه خاوية، وتبدو بناياته المتناثرة كقبور يسكنها الصمت، ولا يُميط لثام صمتها إلا نباح الكلاب في النهار، وعواء الذئاب في الليل، كان قلبه يرتجف خوفاً من صوت الذئاب، لكنها لم تأت إليه في أي مرة، فاطمأن ونام رغم التعليمات الصارمة باليقظة في كل وقت.

حتى تفتحت عيناه للحظة واحدة، تتابعت فيها عليه كل لحظات حياته، قبل أن يشعر بسخونة تتدفق على يده من جنبه الأيسر، كانت دماؤه الساخنة هي التي تفر هاربة من جسده، بعد أن استقرت في مكانها رصاصاً، لفظ من بعدها أنفاسه الأخيرة!!

جلس الشيخ في مجلسه كالمعتاد، ليلقي الدرس بين مريديه، كان في فورة غضبه هذه المرة، بعد أن بلغه مقتل كثير من الإخوة المجاهدين مؤخراً، بعد تجريدات عليهم من جحافل قوات الباطل، وصرخ قائلاً: "شهداؤنا في الجنة وقتلاهم في النار"، وكيف لا وشهداؤنا مجاهدون صديقون، أما هؤلاء فجنود إبليس الملاعين، حتى جاءه نبأ مقتل مأمون وهو جالس، فتلبسته لحظة من الصمت كادت أن تخنق حنجرته،

ولمعت دمعة سريعة سقطت من عينيه، وما فتية أن استجمع كل أشلاء فتاويه قائلاً: "فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه"، ثم استطرد وقال: "ادعوا لأخيكم بالثبوت فإنه الآن يُسأل!!"

تسلم الكشك جندي آخر مكان مأمون، فوجد الراديو الترانزيستور ملقى في الكشك مختبئاً خلف الحجر، فأسرع وأخذه قبل أن يراه أحد، لكن بطارياته كانت قد فرغت تماماً، فترك كشك الحراسة كله، وذهب ليشتري بطاريات جديدة، ثم عاد وهو يضبطه على محطة تذييع الأغاني، ويرفع في الصوت إلى أعلى قدر ممكن!!

تمت ..

(3)
رقصة الأراجوز الأخيرة *

* في أكتوبر ٢٠١٣

انتهت الراقصة ذات الجسد الناعم البض من رقصتها الأخيرة، التي دارت مع استداراتها الرؤوس، والتهبت مع تمايلاتها العيون، وزاغت مع غمزاتها الأبصار، فكست بالنشوة عقول الجمهور السكران، تلك النشوة التي زالت تماماً مع عودة الأنوار لخشبة المسرح مرة أخرى، وأعلن المذيع للحضور أن هذه هي اللحظة المرتقبة، فسوف يظهر الأراجوز الذي أحببتموه كثيراً على المسرح، ذلك الأراجوز الذي أضحككم كثيراً في صندوقه الصغير، بعد أن دار به في الموالد والأفراح الشعبية، فرفعه الناس إلى عنان السماء .

التهبت الأكف وكادت أن تتقطع من التصفيق، وتقارعوا التهناتي كما يتقارعون كؤوس الشراب، وعمت السعادة على كل من في المكان، لم يبق حزين في ذلك اليوم إلا شخص واحد فقط، شخص ظل يرتجف وهو يقف في الكواليس من شدة الخوف، وكان هذا الشخص هو الأراجوز نفسه!!

كان المأزق الذي وقع فيه الجميع كبيراً، مأزق لم يكن يدركه إلا الأراجوز نفسه، فبعد أن اعتاد الرقص في الموالد وبين الناس، وكثيراً ما كان يتبادل معهم النكات والقفشات الخارجية، بمنتهى الحرية، إذا به قد صار عليه الآن أن يرقص كأراجوز فقط، ويرقص كذلك في محل ترقص فيه النساء عاريات، فوق في حيرة كبيرة، فكيف لأراجوز من الخشب والقماش أن يرقص وينافسهن، فمن هذا الذي سيلتفت لرقصه من ذلك الجمهور، الذي يعشق النهش في اللحم الأبيض الطري، وكيف سيطلق القفشات ويتبادلها معهم، وهم من عليّة القوم وقادة المجتمع الكبار، الذين لن يقبلوا إطلاقاً أن يسخر

منهم، وإن تمتعوا كثيرا بسخرياته على الآخرين، فكان عليه أن يغير من طريقته التي أعجبت حتى الكثيرين منهم من قبل!!

تم إعداد المسرح على أفضل ما يكون، وكانت كل الإمكانيات مسخرة لعرض الأراجوز حتى يخرج في أحسن وأبهى صورة، وتم إطفاء الأنوار مرة أخرى في الصلاة، فالعروض هنا ليست كما في الموالد والأفراح كل شيء فيها يتم على عينك يا تاجر، فغالبية الجمهور هنا لا يرغب في أن يراه أحد، فكيف يظهر القائد وهو يستمتع بالرقص والشراب، وكيف يبدو الرئيس وهو يضحك حتى يستلقي على قفاه خلف المائدة العامرة، وكيف يشاهد المواطنون صفوتهم ونخبتهم وهم يلتهمون صدور الديوك الرومي، مع كنوس النبيذ الأحمر المعتق، بينما يصدعون رؤوسهم في كل يوم بفوائد حزم البطون، وهم لا يجدون أساسا ما يسد بطون أطفالهم، فأسقط في يد الأراجوز عندما رأى الظلام يخيم على المكان، ولم يعرف بماذا سيبدأ فقرته تلك اللعينة هذه المرة، وهي التي تبدأ دائماً من وسط الجمهور .

زادت حيرته وقل احتماله، وكاد أن يسقط مغشياً عليه، عندما رأى الصلاة هادئة مع أول فقرة معتادة، فلا أحد يصفق ولا حتى يضحك، أعاد بعض الرقصات القديمة، لكنها قديمة واستهجنتم ولم يضحك أحد، صار الجمهور وكأنه غير الجمهور، أغلبهم لم يعد يُعجبه ذلك النوع من الرقص الأراجوزي الساذج، فكان لا بُدَّ من التجديد ولا بُدَّ من التمرد، الذي قد يحتاج لشجاعة يظن البعض أن الأراجوز لا يمتلكها!!

استدعى الأراجوز كل مخزون الشجاعة لديه، والتي يظن

بأنها قد أودعت في داخله، وأقنع نفسه بأنه أقوى من كل تخمينات الحاضرين، فهذه كانت فرصته الأخيرة، للبقاء على عرش السخرية، في ذلك المجتمع الذي يرفع من يحبه إلى عنان السماء، ويخفض من يكرهه إلى أسفل سافلين، لدرجة أن الناس كانت تصفق له سابقاً وهو يرقص، أكثر من أي راقصة مهنتها الرقص، وتحترف التعري حتى من الحياء، وإذا سقط هذه المرة فلا يدري ماذا سيحدث له بعد ذلك، فاستعان بشجاعته التي يثق فيها أكثر من رقصه، وتحرك نحو الصالة ونزل بين الجمهور، وأخرج بطارية كاشفة من بين طيات ملبسه، ثم سلطها على الجالسين المختبئين في الظلام، وبدأ كالعادة في إطلاق القفشات والنكات، والسخرية من جميع الحاضرين بلا تمييز!!

ظل الأراجوز يكشف ويعري في كل الحاضرين، يعريهم حتى أمام أنفسهم قبل الجمهور، فأسقط في أيديهم وغلت الدماء في عروق بعضهم، إنهم قد أتوا ليشاهدوا رقصه آمنين مطمئنين، وهم يثقون بأن أحداً لن يشاهدهم من خلف الظلام، هل تتحول العصا التي كنا نضرب بها إلى ثعبان يلدغنا؟!!

كانت صراحة الأراجوز فجة، وقفشاته خارجة أكثر من العادة، فماذا يفعل من سبقته راقصة عارية تتمايل بكل مفاتها، فكان يجب عليه أن يغطي على عريها الإغرائي الفج، بعرض عارٍ آخر أكثر فجاجة، ورغم أن ذلك كان يحدث في كل عروضه السابقة، وربما أكثر، لكن أحداً لم ينتبه لذلك أبداً إلا الآن!!

ضحك الجمهور كثيراً هذه المرة، لكن ظل هؤلاء الذين سلطت عليهم الأضواء، لا يضحكون، فقد ظهر منهم ما كانوا

يحرصون على إبقائه مستوراً في الخفاء، ظلوا على صمتهم وتجاهمهم، بل إن البعض منهم قد نظر إلي الأراجوز نظرة إشفاق، واعتبروه يرقص رقصة موته الأخيرة، فودعوه الوداع الأخير، ودعوه حتى قبل نهاية عرضه الجديد!!

انتهى العرض وسط ذهول الكثيرين، ووسط آراء متباينة، لكن الرأي الغالب كان هو ضرورة الخلاص من ذلك الأراجوز، الذي يبدو أنه سيرهق الجميع، رغم أن شيئاً لم يتغير في الأراجوز، فرقصاته هي نفس الرقصات، وقفشاته هي نفس القفشات، وسقطاته الخارجة هي نفس السقطات، وملابسه المزركشة هي نفس الملابس، لكنها لم تكن على جسده هذه المرة، فقد وجدوها ملقاة بجوار سور المسرح!!

أما الأراجوز نفسه فلم يكن موجوداً، ولم يعثر عليه أحد بعد ذلك، لا في المسرح الجديد ولا حتى في الموالد القديمة، إلا أن البعض يؤكد أنه قد شاهده وهو يخلع رداء الأراجوز نهائياً، وأكد أن وجهه لم يعد باسمًا كما كان، عندما ظهر في الموالد بين الناس حيث اشتهر ولامس السماء!!

(4)
كوابيس الإمام *

* في يناير ٢٠١٣

استيقظ الإمام من نومه مهموماً، بعد أن أفرغه كالعادة نفس الكابوس، الذي ظل يراوده في الفترة الأخيرة، لم يكن الوقت وقت صلاة الفجر، ولم توقظه كذلك أصوات ديوك الصباح، تلك الديوك التي اعتادت أن تؤذن قديماً لتعلن عن قدوم فجر جديد، لكن الإمام أصبح يستيقظ في أيامه الأخيرة على أصوات صراخ وتناحر، ظل يسمعها من بين جموع المصلين الذين كان يؤمهم، فلقد أخطأ الإمام الحافظ المشهود له بالعلم، أخطأ مرة أخرى في تلاوة آيات القرآن!!

اصطف المصلون بعد أن سمعوا تكبيرات إقامة الصلاة، وتقدم الإمام من بين الصفوف في جلبابه الأبيض الناصع، والهدوء يخيم على المكان، هدوء لا تقطعه الإرنات من حبات مسبحته التي ما زالت تنحدر من بين أصابعه، حتى وصل إلى المحراب ووضع المسبحة على الحصير، والتفت ناحية المصلين وقال "استووا"، ثم استقبل القبلة ونوى وكبّر، ومن خلفه كبر المصلون كبيرهم والصغير، وعلى رأسهم شيخ البلد وشيخ الخفر أصدقاء الإمام المقربون، الذين لم يتركوا فرضاً خلفه أبداً منذ أن تولى الإمامة، حتى فرض صلاة الفجر الفاصل دائماً ما بين الإيمان والنفاق.

بدأت الصلاة وقرأ الإمام الفاتحة، وردد المصلون من بعده "أمين"، ثم قرأ ما تيسر من القرآن حتى وصل إلى "ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرٍّ للجوا...". ثم كرر "للجوا...". كررها أكثر من مرة، حتى رده أحد المصلين وأكمل له الآية "...للجوا في طغيانهم يعمهون"، ثم أكمل الإمام الصلاة وسلم وختم صلاته وانصرف سريعاً، حتى يهرب بأذنيه من

همسات المصلين على نسيانه هذا غير المعتاد، لكنه وقف برهة بجوار نافذة المسجد، فسمع همهمات المصلين وهم يتهايمسون بالداخل على خطأ الإمام ذلك اليوم، فاستيقظ من نومه مفزوعاً، بعد أن أدرك أن هذا هو نفس الكابوس المعتاد، الذي ظل يراوده في كل ليلة.

نهض الإمام من سريره وظل يراجع ويحفظ، حتى سمع أذان الفجر فترك المصحف وتوضأ وذهب إلى المسجد، وتقدم من بين المصلين بعد الإقامة، ونوى وكبر وقرأ الفاتحة، ثم قرأ ما تيسر من القرآن حتى وصل إلى "ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن.."، وكرر "ولكن.." كررها أكثر من مرة، حتى رده أحد المصلين وأكمل له الآية "... ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير"، وأكمل الإمام الصلاة وختمها، ثم انصرف بمنتهى السرعة وهو مطأطأ الرأس من الخجل، والمصلون تعلو همساتهم عليه، فوقف ليسمعهم مرة أخرى من خلف النافذة، ووصلت بعض أصواتهم إلى مسامعه، كان بعضهم يرفض مجرد الحديث عنه فهو الإمام الحافظ، وبعضهم يلتمس له العذر فربما يراجع على حفظه للقرآن مرة أخرى، وبعضهم يعترض على عدم حفظ الإمام، ويطلب استبداله بأخر حافظ ومجيد، حتى تعالت أصوات الجدل في المسجد، فاستيقظ الإمام من نومه مفزوعاً، فقد كان هذا هو نفس الكابوس المعتاد، الذي ظل يراوده في كل ليلة.

نهض الإمام من سريره، واستعاد بالله من الشيطان الرجيم، وتناول مصحفه وظل يحفظ ويراجع مرة أخرى، حتى سمع أذان الفجر، فتوجه إلى المسجد وهو يقدم رجلاً ويؤخر

الأخرى، وكله يرتعد خوفاً من الخطأ والنسيان، وتقدم الصفوف من بعد الإقامة، وهو يشعر بأن عيون كل المصلين تنظر إليه، وأذانهم لن تحسب عليه نطقه فقط، ولكن أنفاسه كذلك، كانت رجلاه مرتعشتين وعيناه زانعتين، أما عقله فلم يكن معه، أحس بأن كل محصوله من القرآن قد طوى أوراقه وحزم حقائبه وولى، فكبر للصلاة بصوت خفيض، صوت سمعه بالكاد من كانوا في الصف الأول، ثم بدأ يقرأ الفاتحة حتى وصل إلى "إياك نعبد وإياك نستعين.." ثم كرر "وإياك نستعين.." كررها أكثر من مرة، حتى رده أحد المصلين "اهدنا الصراط المستقيم..." .. فأكمل الإمام الصلاة وسلم، ثم انصرف سريعاً دون أن يختم الصلاة مع المصلين، كان يحس بسهام نظراتهم النارية وهي تكاد تحترق جسده، الذي مرق متوارياً من بين الصفوف، بينما تعالت الأصوات التي اخترقت مسامعه، وهو يقف يستمع كالعادة من خلف النافذة، تلك الأصوات التي تأرجحت ما بين مؤيد تام لبقائه، وبين مُصرٍّ شديد على عزله، وفي خضم كل هذا الخلاف توارى تماماً، هؤلاء الذين طالبوا بإصلاح الإمام لنفسه ومراجعتة لحفظه، هؤلاء الذين سكتوا نهائياً لما تعالت الأصوات المؤيدة والرافضة، وانقلبت الأصوات صراخاً ثم عراك، حتى استيقظ الإمام مفزوعاً من نومه، فقد كان هذا هو نفس الكابوس المعتاد، الذي ظل يراوده في كل ليلة.

نهض الإمام من سريره، واستعاذ بالله من شيطانه، وذهب واغتسل وتوضأ وتناول المصحف، وأعاد الحفظ والمراجعة مراراً ومرات، حتى سمع صوت أذان الفجر وهو

ينادي، فظل يراجع مرة أخرى، ويحفظ في السورة التي سيتلوها في الصلاة، وظل طوال الطريق يعيد فيها، وكأنه داخل على امتحان سيكون هو الأقسى في حياته، وهو يسأل نفسه إن كان يحلم هذه المرة أم أنها الحقيقة، لم يعد يستطيع التفريق بين الحلم والحقيقة، ولم يعد يدري أي شيء مما يجري حوله، كان كل ما يشغله هو مراجعة ما يحفظه، ليحفظ به ماء وجهه أمام المصلين، رغم أن الله يعلم ما يسكن في الصدور، لكن الناس لا يعلمون إلا ما تنطق به الألسن، حتى وصل إلى المسجد ودخل من الباب، فوجد المصلين وقد اصطفوا، وأحدهم قد تقدم ليؤمهم في الصلاة.

تأخر الإمام كثيرًا هذه المرة، حتى لم يعد له مكان في الإمامة، فدخل في الصلاة مع المصلين في آخر صف، وسمع الإمام البديل وهو يتلو عليهم من مصحف كان مفتوحًا أمامه، "قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء..". حتى سلم وانتهت الصلاة، فاتفض الإمام من مكانه واقفًا، وألقى نظرة سريعة على الإمام البديل الذي أم المصلين مكانه، فلم يعرفه لكثرة الصفوف التي فصلت بينهما، لكن هيئته لم تكن غريبة عليه، وخرج سريعًا من مؤخرة الصفوف، حتى لا يراه أحد!!

تمنى الإمام لو أنه كان في كابوس، مثل ذلك الذي ظل يراوده في كل ليلة، ثم يصحو منه وكأن شيئًا لم يكن، فصار يتحسس جسده ويهز في رأسه ثم يضربها في حديد نافذة المسجد، التي وقف بجوارها ليستمع إلى أحاديث المصلين كالعادة، لكنه لم يصح من كابوسه هذه المرة، فلم يكن نائمًا كما

كان يتمنى، وظل معلقًا بيديه في حديد نافذة المسجد، حتى
تراامت إلى مسامعه آخر كلمات المصلين من داخل المسجد،
"شيخ الخُفر" قد صار هو الإمام!!

تمت ..

(5)
المغوري يضحك أخيراً *

* في مارس ٢٠١٢

هذا الرجل لم يضحك أبداً في حياته، إلا مرة واحدة، ثم حدثت بعدها نكسة سبعة وستين!!

هكذا كان الناس يرددون عن "المغاوري"، الذي ظل يجلس لأكثر من أربعين عاماً في ركنه المفضل المطل على ناصية الشارع، على باب المقهى الأكبر في تلك البلد، وهو يدخل في كرسي "المعسل القص" الذي لا ينتهي منه أبداً، مع كوب الشاي الحبر الذي يلحسه من الكوب لحساً، ولا يترك فيه حتى "التفل"، ولا يكاد يسمع له أحد صوتاً، إلا تلك الطلقات المتتالية من نوبات سعاله المحشرج، ولا يذكر له أحد قط أنه قد نادى على "عرفة" القهوجي، حتى يزيد له جمرة نار، أو أن يغير له الحجر من بعد أن "يبستفه" على هذا المعسل المضروب، كما كان يفعل معظم رواد المقهى، الذين يعرفون جيداً أن عرفة يغش في المعسل، ويضع فيه مع "التبناك" الأصلي تلالاً من "مصاصة" القصب، بعد أن يخلطها بالعسل الأسود.

ورغم أن المغاوري كان يعرف جيداً تلك الحقيقة، بل وكان أحد شهود عملية غش عرفة للمعسل، الذي كان متآمراً وذا بلاهة كما يقولون، فقد كان يفرد المعسل بعد خلطه بالمصاصة تحت الشمس، وأمام الكرسي الذي يجلس عليه المغاوري مباشرة، بل إنه كان يراه وهو آتٍ يحمل جوال مصاصة القصب فوق كتفه من العصاراة المجاورة للمقهى، ومع هذا كان المغاوري هو الزبون الوحيد الذي لم يعترض أبداً على ذلك، مما جعل عرفة يضع جوال المصاصة خلف ظهر كرسي المغاوري رأساً، ويستند عليه المغاوري دون أن يبدي

أي اعتراض، والغريب أن عرفة كان يعلق زلعة العسل الأسود
كذلك أعلى نصبة الشاي، وتحيطها صفوف "الجوز" كنوع من
الديكور، حتى إن بعض الزبائن من الشباب كانوا يتندرون عليه
عندما يطلبون المشايب، ويقولون له بمنتهى التهكم:

"كرسي معسل يا عرفة، وكتر العسل!!"

ولا يرد عرفة عليهم بالطبع، إلا برده الشهير:

"عسل والنبي عسل!!"

وحتى عندما تنشب بعض المعارك، بين عرفة وبعض
الزبائن، كان المغاوري يحرص دائماً على أن يظل في موقع
المتفرج، ولم يطلب منه عرفة في أي مرة أن يشهد معه على
جودة المعسل، رغم أن غابة "الجوزة" لم تُفارق فم المغاوري
في المقهى على مدار أربعين عاماً، وكذلك لم يجرؤ أحد من
الزبائن على الاقتراب من المغاوري وسؤاله أو الإستشهاد به،
لما اشتهر به بين أهل البلد بأنه رجل "نحس" والبعد عنه
غنيمة.

تُسجت حول المغاوري قصص وحكايات كثيرة، كان
أغلبها مؤلفاً ومبالغاً فيه، لكن الحكاية الوحيدة التي كانت
صحيحة عن المغاوري، فهي أنه لا يضحك أبداً، والمرة
الوحيدة التي ضحك فيها، أتت بعدها نكسة سبعة وستين، أي
أن اعتدال مزاج المغاوري، لم يكن نكسة على من حوله فقط،
بل على البلد كلها، ومنذ ذلك التاريخ وقد قرر المغاوري عدم
الضحك على أي شيء، لحسن حظ البلد طبعاً!!

انشغل الناس بموضوع نحس المغاوري، وصارت
قصصه تُلَاك على السنة رواد المقاهي والغرز، وفي جلسات

الحشيش والمزاج، والكل يضحك على المغاوري هذا الذي لا يضحك أبداً، ولكن أحداً لم يكن يشغل باله أبداً، بسؤال آخر مهم ومنطقي، وهو عن عمل المغاوري ذاته، ومن أين يتكسب ذلك الرجل قوت يومه، وهو الزبون الدائم على مقهى عرفة، ولم يُصادفه أحد من قبل، وهو يبيع أو يشتري شيئاً في السوق، وكذلك لم يظهر في أي غيط من الغيطان وهو يزرع أو يقلع أو يسقي، كما أنه ليس من أصحاب الحرف، وليس موظفاً كذلك في أي مصلحة حكومية!!

ظلت قصص نحس المغاوري تغطي على سره الكبير، ذلك السر الذي لم يحاول أن يعرفه أحد، ويبدو أن المغاوري نفسه قد كان سعيداً بهذا الغموض، الذي ظل يخيم على شخصيته، وكان على يقين بأن انشغال الناس بمجرد قصة، لن تُقدم ولن تُؤخر في أي شيء، بل إنه كان يستفيد من ذلك فعلاً، في انصراف الناس عن الاحتكاك به، ليظل بعيداً عن بؤرة أي حدث، من تلك الحوادث الكثيرة التي تجري في البلد.

ورغم أن الفقر يغلب على معظم أهل البلد، عدا بعض الأثرياء المعروفين، من كبار الملاك وتجار المواشي، وكذلك تجار الصنف الذي لا يستغني عنه مدمنو الحشيش والأفيون، فإن المغاوري كانت تبدو عليه علامات الثراء، ولا يظهر في جلسته في المقهى إلا وهو يرتدي جلابيته الكشمير المكوية دائماً، ومن فوقها "البالطو" الجوخ الغالي، وتعلو رأسه دائماً طاقية صوف منسوجة من وبر الجمل، ويلف عليها "لاسة" بيضاء محللوي لا تتسخ أبداً، أما حذاؤه فلم يكن مجرد "بلغة" مثل باقي الفلاحين، ولكن كان من النوع البنص الجلد، وكان

دائماً ما يلمع.

استيقظ أهل البلد على خبر موت عرفة القهوجي، والذي واروا جثمانه الثرى بعد صلاة الظهر، وكان المغاوري على رأس المشيعين، ثم رجع الجميع وهم يترحمون عليه وعلى أيامه، مشفقين عليه بالطبع من حساب الملكين، عندما يجرونه ويسألونه عن غش المعسل، وما خفي كان أعظم، وتفاعل الجميع خيراً بأنهم سوف يشربون أخيراً كرسي المعسل الأصلي من دون مناهدة، بعد أن انتهى الغش تماماً بموت عرفة الغشاش، ولكن أحداً لم يسأل نفسه السؤال الأهم، عن ذلك القهوجي الذي سوف يدير المقهى خلقاً لعرفة، الذي كان مقطوعاً من شجرة.

ورغم أن البعض قد توقع أن يتم إغلاق المقهى لفترة طويلة من بعد موت عرفة، لكنهم قد تفاجنوا بالفعل بفتحها في اليوم التالي، وكانت المفاجأة الأكبر في القهوجي الذي وجدوه واقفاً وحده خلف النصب، ويحمل "بستلة" الماء من التربة ويعطي كذلك لـ"البابور" نفس، فقد كان المغاوري هو من يفعل ذلك كله، بعد أن ترك كرسيه الأثير وغابة الجوزة، وخلع ملبسه الجوخ الغالية وارتضى مختاراً أن يُخدم بنفسه على الزبائن، فظنوا أن عرفة قد باعه المقهى قبل وفاته، إلا أنهم تذكروا أن عرفة "يرحمه الله" لم يقل لهم يوماً أنه مالك المقهى، بل كان يحرص دائماً على التأكيد لهم بأنه مجرد قهوجي يعمل فيها فقط، أما المال فله صاحبه.

لم ينشغل الزبائن كثيراً بموضوع ملكية المقهى، فالمهم أنها تعمل وتقدم لهم الطلبات، وسواءً كان القهوجي عرفة أو

حتى المغاوري، فهذا الشيء لا يهم بالنسبة لهم، خصوصاً أن زلعة المغاوري قد بين كرامة للزبان منذ أول يوم، بعد أن أزال زلعة العسل وجوال مصاصة القصب، اللذين كان يغش بهما عرفة المعسل، وكان يحمل لهم المشاريب كذلك بمنتهى السرعة، ولكن لما طلب منه بعض الزبان كرسى معسل، وجدوه مضروباً مثل معسل عرفة، فاعترض عليه الزبان بعنف أكثر من ذلك الذي كانوا يمارسونه مع عرفة، ولكن المغاوري لم يجادل في الأمر كما كان عرفة يفعل من قبل، إنما اعترف لهم بأنهم على حق، وأن المعسل مغشوش فعلاً، ووعدهم بتحسين جودة المعسل في المستقبل، لكن بعد أن ينتهي المخزون الكبير المضروب الذي تركه له عرفة، حتى لا تكون المسألة موتاً وخراب ديار.

ظل الزبان ينتظرون انتهاء مخزون المعسل المضروب، الذي لم ينته أبداً، حتى تفاجأ الجميع بعودة المغاوري للجلوس مرة أخرى في ركنه المفضل على باب المقهى على ناصية الشارع، بعد أن وقف "غانم" القهوجي الجديد مكانه خلف النصب، وبدأت المعارك تنشب مرة أخرى بين غانم وبين الزبان، بينما عاد المغاوري لا يتدخل كالعادة.

عادت زلعة العسل تُعلق من جديد بين صفوف الجوز، وعادت أجولة المصاصة تأتي للمقهى على كتف غانم القهوجي من العصارة المجاورة، وأكثر الزبان ما بين ممتعض أو غير مبالي بالموضوع، أما من يعترض على المعسل، ويتشاجر مع غانم عليه، فكل ما كان يقوله له غانم عندما يشتد الشجار، إنه مجرد قهوجي يعمل فقط في المقهى، وإنه عبد مأمور وليس

صاحب المال، حتى سألوه ذات مرة عن صاحب ذلك المال، فأشار لهم ناحية الركن الذي يجلس فيه المغاوري، فنظروا إليه فوجدوا وجهه تعلوه ابتسامة على غير العادة، فلم يشغلوا أنفسهم بالسؤال عن مستندات ملكية المغاوري للمقهى، وإنما انشغلوا فقط بابتسامته غير المعتادة، والتي عادة ما تكون بادرة من بوابر نكسة جديدة ستحل على البلد!!

تمت ..

(6)
باب الله *

* في يناير ٢٠١٣

كان ماء الوضوء يتساقط من جبهته الباردة، وهو يتمتم بالدعاء، لعل الله يجعل له في صحبة كل قطرة تسقط منها، سيئة تسقط عن كاهله المتقل بالذنوب، حتى أدن المؤذن لصلاة الفجر، فخرج من منزله بخطوات منتظمة تصاحبها التكبيرات، ويردها خلف المؤذن متأملاً في زيادة الثواب .

الشوارع خاوية كالعادة، والشبورة المائية تغطي كل شيء، كان الجو بارداً ولفحات الرياح تفت في العظام، فهناك نوة تجتاح تلك المدينة الساحلية الكبيرة، لكن كل هذا لم يكن ليمنع "مصيلحي" من الخروج، فلم يكن للشيطان أي سلطان عليه، خصوصاً في تلك الساعة بالذات، فلم يفلح الشيطان في منعه من الخروج لأكثر من ثلاثين عاماً، حتى تحولت معه صلاة الفجر جماعة في المسجد إلى عادة، وكثيراً ما كان يدعو في صلاته، بالألا يقطع الله له عادة!!

كان طريق "مصيلحي" إلى المسجد، هو نفسه ذات الطريق إلى عمله، فرصة لنيل الثواب من الجانبين أكرمه بها الله، هكذا ظل يعتقد وهو في طريقه للعمل الذي اعتاد الذهاب إليه بعد أن ينتهي من صلاة الفجر في المسجد العتيق، والمواجه مباشرة للمبنى الحكومي القديم المتهاك الذي يعمل فيه، فقد كان حتماً عليه أن يكون أول الحاضرين لمقر العمل، قبل كل الموظفين، وأن يكون كذلك آخر المنصرفين منه، بعد انصرافهم جميعاً .

وصل إلى المسجد فوجد بابه موارباً، لم يتعجب من ذلك الأمر، هذه عادة لم تنقطع أيضاً، ويفعلها "عبدالغني" خادم المسجد الذي يبدأ في تبادل القفشات معه، قفشات يسعد بها كل

منهما، فهذا يوارب باب "بيت الله" في وجه القاصدين، وهذا يغلق باب "فرج الله" في وجه الطالبين!!

لم يكن عبد الغني يرد على مصيلحي، إلا بجملة واحدة في كل مرة، ويؤكد له بأن باب الله مفتوح دائماً، حتى ولو كان باب بيته موارباً، فما على قاصده إلا أن يدفعه ولو بيد واحدة، ليفتح له على مصراعيه، حتى ولو حاول منع ذلك شيطان مريد، أما مصيلحي فكان يؤكد أنه هو من يفتح باب فرج الله!! أمام وجه طالبه، بعد أن أغلقتة الحكومة، فليس على طالبه إلا التوجه إليه في "الكاتنين"، ليجد ضالته بمشيئة الله وبنفس مصيلحي معه، الذي يصر كذلك على أنه المسيطر والمتحكم في كل أمور المصلحة التي يعمل فيها منذ زمن طويل، رغم أنه لم يكن أكثر من مجرد ساع فيها!!

ولا يعتبر مصيلحي أن لهؤلاء البهوات، من الموظفين الجالسين خلف المكاتب أي دور، إلا في تعطيل طلبات ومصالح الناس، وأنه لولاه هو لما أنجز أي مواطن طلباً من المصلحة، وما يكاد مصيلحي ينتهي من صلاة الفجر، حتى ينصرف قبل الخمسة عشر مصلياً الذين حضروا للصلاة في المسجد، والذين يتناقصون يوماً بعد يوم!!، وبعد أن يودع صديقه اللدود عبد الغني، المترصد له دائماً بالقافية والنكات، يتوكل على الله ويُسمر ذراعيه إلى المرفقين وسرواله إلى الفخذين، فأمامه من العمل الكثير في المصلحة التي يتجه لبابها مباشرة ويفتحه، ويتركه كذلك موارباً كما باب المسجد، وسط ضحكات عبد الغني الذي يطل عليه، وهو يغلق باب المسجد بعد انتهاء الصلاة.

يبدأ مصيلحي في ملء البراد الألمنيوم الكبير بالماء،

لزوم الشاي وخلافه، ويتركه ليغلي على نار هادئة، يكون خلالها قد انتهى من كنس الحجرات وتلميع المكاتب، وترتيب الملفات والأوراق المتناثرة، ثم يرجع سريعاً إلى مكانه الذي سيرابط فيه بقية اليوم، في دورة مياه الجمهور، بعد أن استقطع جزءاً كبيراً منها، وتحولت بقدرة قادر إلى "كائتين" عامر بالمشروبات الساخنة والباردة، وأكياس البسكويت والكيك وغيرها، وعلى ترابيزة كبيرة بها درجان كبيران ممتلئان بالدمغات والملفات والورق والأقلام الجاف يبدأ مصيلحي يومه في تلقي الطلبات من الزبائن!!

وزبائن مصيلحي في الكائتين نوعان، نوع يأتيه مباشرة وهذا يعرف ما يريد، ونوع آخر يجلبه مصيلحي بنفسه من أمام المكاتب، فهو له قدرة غريبة على أن يرى خيبة الأمل في عيون كل خائب، بعد أن يهم بمغادرة المصلحة وقد رفض طلبه، وتحطمت سفينته آماله على صخور مراوغة الموظفين الجالسين خلف المكاتب، والذين دوخوه السبع دوخات، فما بين هذا وذاك يتوه صاحب الطلب ما بين دروب لا يعلمها إلا خبير، وهنا يظهر له ذلك الخبير، فيظن أنه قد وجد ضالته المفقودة بين هؤلاء الضالين، عندما يصطحبه الخبير مصيلحي إلى الكائتين!!

وهناك يستقبله كما نسمة عاصري، تمر على جبهته المعروقة في حر صيف قانظ، ويسحب له كرسيّاً بجوار براد الشاي الذي يغلي، كما يغلي صاحب المصلحة من كثرة اللف والدوران، فيقدم له مصيلحي كوباً من الماء البارد، ليبل به ريقه الذي جف، ويطمئنه بأن كل شيء له حل، وكل إدارة في

المصلحة ولها سِكة، بعد أن يسأله عما كان يريد، ولمن من الموظفين بالضبط قد توجه، وكيف أنه كان يجب عليه أن يتوجه للأستاذ "عبد العاطي" بدلاً من الأستاذ "عبد الراضي"، ثم يناوله كوب الشاي الذي لم يطلبه والحساب يجمع، بعد أن يأخذ منه كل الأوراق، ومعه ثمن الشاي الذي لن يشربه كل من عبد العاطي وعبد الراضي للموافقة على طلبه، ثم يغادر الكائنين وهو يقول له عبارته الأثيرة

"باب فرج الله مفتوح"

حتى يعود له بعد دقائق قصار، يطلب منه فيها أن يقضيها في الاستغفار، ليدخل عليه والابتسامه تزين وجهه الذي تطوه علامة الصلاة، وقد حمل له كل الأوراق خالصة ومزينة بجميع الأختام المطلوبة، فقد نزل فرج الله وتمت المصلحة، ومن طرق الباب ما خاب!!

لم يكن مصليحي يقبل الحرام أبداً، لا على نفسه ولا يجب أن يلقيه إلى معدة أولاده، هكذا كان يردد دائماً بين جلساته، أما ما يخص هؤلاء الموظفين، فهو شأنهم فقط، وكل نفس بما كسبت رهينة، ورغم أنهم في نظره مرتشون، والحرام لن ينفعهم في دنيا أو آخرة، لكن كل هذا لا يعنيه في أي شيء، فهو مجرد "واسطة خير"، وبدونه لن تتم أي مصلحة، وبدونه كذلك لن تعمل هذه المصلحة، ويؤكد أن كل ما يتقاضاه من زيونه، هو ثمن كوب الشاي فقط، ثم القهوة وزجاجات المياه الغازية والعصائر والبسكويت، حسب الوقت الذي يستغرقه تخليص الطلب، بجانب حساب الورق والقلم والملف الكرتون "أبو نحاسة"، والدمغة التي لم يكن ليحدها المواطن إلا في

بوسته وسط البلد، ويحرص عندما يجمع الحساب للزبون في النهاية ألا يتقاضى منه ثمن جلوسه على الكرسي، فهذا هو حق ضيافته، ثم يأخذ الحساب وهو يتمم بالدعاء "الحمد لله الذي أطعنا الطيب الذي رزقناه وجنبنا الخبيث الذي حملناه"

حتى يسمع المؤذن وهو ينادي لصلاة الظهر. يهرع جميع الموظفين للصلاة، ويبدون أكثر حرصاً عليها من أي وقت آخر، فتمتلئ بهم المصلى المخصصة في المصلحة، لكن وحده مصيلحي هو الذي كان يصلي خارج المصلحة، فله مسجده الأثير المواجه للمصلحة، حتى ولو قابل هناك صديقه المشاكس عبد الغني، الذي لم يكن يسلم من لسانه أبداً، والذي يبدو أحياناً أطول من ذراعه، تلك الذراع التي تعجز عن فتح ضلفتي باب المسجد، لكنه قد خيب ظنه هذه المرة، فقد وجد باب المسجد مفتوحاً للمصلين على مصراعيه.

كان المصلون أكثر عدداً هذه المرة، ربما لأنها صلاة الظهر، لكن الغريب أن أغلبهم كانوا من موظفي المصلحة، لحق مصيلحي له مكاناً في الصف الأخير، حتى سلم ونظر يمينه ويساره، فوجد حوله الأستاذ "عبد الراضى" والأستاذ "عبد العاطي"، فمد يده لهما وهو يقول "تقبل الله يا أساتذة"

فرد عليه كلاهما

"منا ومنكم يا مصيلحي"

ثم انصرف ليخرج من المسجد ليقابل "عبد الغني"

الواقف على الباب، والذي قال له
"الموظفين كثير النهارده يا مصيلحي"
فرد عليه مصيلحي قائلاً
"الظاهر محدش عاد بيصلي في المصلحة!!"

تمت ..

(7)
عودة إيجليانا *

* في مايو ٢٠١٢

عادت "إيجيليانا" أخيراً، عادت إلى نفس المكان الذي وُلدت فيه، وأحبها فيه الجميع، عادت بعد أن غابت عنه سنوات لم تستطع أن تحصيها كل أصابع محبيها، لدرجة أنهم قد فقدوا الأمل في رجوعها مرة أخرى، بل إن البعض كان قد نسيها فعلاً، حتى تفاجأ الجميع بصرير باب مكتوم، داعب الأذان على استحياء، عندما فتح باب بيتها الكبير العالي، والذي يسميه أهل البلد "بيت إيجيليانا"، ذلك البيت العتيق المغلق منذ زمن بعيد، ولم تكن تصدر منه أية أصوات طوال مدة غيابها، إلا أصوات الرياح عندما تتجول فيه ليلاً في ليالي الشتاء الباردة المظلمة، لتصدر صفيراً مخيفاً من حجراته الخاوية من البشر ومن الحياة، لتبقى تأويلات الصغار على هذا البيت بأنه مسكون بالغفاريات، لكن وحدهم أحباء إيجيليانا الذين لم يصدقوا ذلك، ففي هذا المكان كانت تسكن إيجيليانا الملاك الذي أحبوه، وحيثما سكنت الملائكة لا يمكن أبداً أن تحل الشياطين!!

وها هو باب البيت قد انفتح أخيراً، في ذلك الصباح الذي يُنبئ بالخير على غير العادة، بعد أيام طويلة من الكآبة قد عاشتها البلد في ظل غياب إيجيليانا الطويل، إنما اليوم فقط قد انتهى كل شيء، وأصبحت الكآبة من الماضي، فقد عادت إيجيليانا أخيراً، وعاد باب بيتها مفتوحاً لهم مرة أخرى، ذلك البيت الذي كان عامراً في الماضي البعيد.

كانت إيجيليانا هي الفتاة الحلم الذي ظل يحلم به كل شباب البلد، والذين بدأ أكثرهم يشيخ خلال سني غيبتها الطويلة، إلا أن صورة إيجيليانا لم تكن لتتمحي من ذاكرة معظمهم، وكيف ثمحى وهي تحمل في طياتها عينيها العسليتين

الرافقتين، ونظرتها الأسرة الساحرة التي تتوارى خلف تدافع
خصلات شعرها البني المنسدلة على جبينها الأبيض المتورد،
لترسم مع ابتسامتها العذبة المستحيلة لوحة مبدعة تجمع بين
إطلالة شمس الصباح عندما تشرق في خجل على حبات الندى
المتناثر فوق الغصون، وبين قسوة شمس الغروب عندما تغادر
لتترك الدنيا في ظلام مشتاق لعودتها مرة أخرى، وهكذا كانت
إيجيليانا دائماً، خليطاً رائعاً ما بين سحر الشرق بكل أسرارها،
وظموح الغرب بكل إبهاره، ما بين أبيها المصري الصعيدي
الأصل والبشرة، وأمها الأوروبية ذات العيون الزرقاء والشعر
الأشقر، والتي ماتت منذ زمن طويل، ولم يتزوج أبوها من
بعدها أبداً، ولا حتى انتهى من دونها نساءً، وكان كثيراً ما
يقول عنها:

كانت هي كل الدنيا، ومن يعاشر الدنيا، لا يجب أن يدخل
من بعدها أي دنيا!!

انتشر خبر عودة إيجيليانا انتشار البرق المضيء المبهر
في سماء البلد المظلمة الحالكة، فلم تكن إيجيليانا مجرد حلم ظل
يستعصي على الجميع بلوغ تأويله، لكنها كانت القلب الذي ظل
يحب ويحتوي الجميع، حتى ظن كل شاب وقتها أنه حبيبها
الوحيد، والمفضل عليهم جميعاً، أما من سواه وإن باح بحبه
فهو مجرد متوهم لهذا الحب، فعيون إيجيليانا الناعسة لم تكن
تفرق بينهم أبداً في النظرات، ولا تقطع البسمات عن هذا أو
ذاك، أما نسيمات العاصري فكانت كفيلة بتوزيع تمايلات
خصلات شعرها المنسدل على كتفيها ذات اليمين وذات الشمال،
ليظن كل من ينظر إليها بأنها تميل بشعرها نحوه، لكن أحداً

منهم لم يكن ليجروا على التقدم ليطلب الزواج منها، فقد كان أبوها دائماً ما يرفض كل خطبائها، ويعن وبكل صراحة بأنه يظن بابتنته الجميلة على هؤلاء، فكيف يكون نصيبها أن تُدفن في أي من بيوت البلد المبنية من الطين!!

على الرغم من أن والد إيجيليانا لم يكن من ذوي الأصول، إلا أنه أصبح من ذوي الأموال وتأصل في البلد بغناه، فقد كان تاجراً كبيراً للقطن، ويستطيع أن يشتري مع القطن محاسيب تعدد في مآثره وأصله وفصله، فتلك بلد تتوه فيها الحقائق خلف تلال الأموال، ويبدو هذا الغنى من هيئة بيته الكبير ذي الباب العالي والترسينة ذات المشربيات المطعمة بالزجاج الملون، والذي بناه خصيصاً بعد زواجه من أم إيجيليانا، حتى تشعر وكأنها تعيش في قصر من قصور العصور الوسطى في أوروبا، وأنفق على بنائه معظم ما يملك حتى صار عجيبة العجائب في البلد، وبنى بجواره الجامع الكبير حيث كان يلتقي فيه مع كبار وأعيان البلد، ورغم أنه لم يكن في الأصل من أهل البلد إلا أنهم كانوا يقيمون لرأيه وزناً كبيراً، ويوكلون له الأمر في إدارة معظم الشؤون، والكثير من أمور البلد لم تكن لتمر دون استشارته وأخذ نصيحته، حتى إن الكثيرين كانوا على يقين بأن أي عمدة جديد للبلد لم يكن يتم اختياره، إلا بعد أن يحدده والد إيجيليانا بالإسم لمأمور المركز، أو أن يوافق عليه، ولهذا كان أعيان وكبار البلد يتجمعون في بيت إيجيليانا بعد كل صلاة عشاء، لكن شباب البلد كانوا يتجمعون حول البيت لأسباب أخرى تماماً .

كان تناول شربة ماء باردة، من القلل القنّاي المتراسة

أمام بيت إيجيليانا، والتي كانت تملأها بنفسها في عصر كل يوم، هو غاية المراد من رب العباد لهؤلاء الشباب العُزاب العطاشى لكل شيء منها من أهل البلد، ورغم أن ملء هذه القلل كان من عادة جميع أهل البلد في شهر رمضان فقط، فإن إيجيليانا كانت تحرص على ملئها في كل شهور السنة، ولم تكن تكفي بملئها بالماء العذب النقي فقط، إنما كانت تحرص على خلط مائها بماء الورد، ثم تضع نصف ليمونة في رقبة كل قلة، حتى أصبحت شربة الماء من قلل إيجيليانا لها مذاق آخر، خصوصاً في ليالي الصيف الحارة، أما الأطيب من شرب الماء فكان خروج إيجيليانا عليهم لأي سبب، ليحظى الشارب العطشان بالماء والوجه الحسن، أما الخضرة فكانت في قلب إيجيليانا البريء ونظرتها البكر المستحيلة، وابتسامتها الساحرة التي تجعل الناظر إليها يجزم بأنه هو الوحيد الذي خطف قلبها الصغير، ووضع بجوار قلبه العامر بحبها .

ورغم كل هذا الافتتان بإيجيليانا من شباب البلد، فإنها لم تكن محل غيرة من باقي بنات البلد، وحتى من الجميلات الفاتنات منهن، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كانت على صداقة وطيدة بمعظمهن، وتجاملهن جميعاً في الأفراح والأتراح، وكانت تستطيع أن تجعل كلا منهن تظن في نفسها أنها صديقة إيجيليانا الوحيدة، بل الأكثر اقتراباً منها، حتى إن إيجيليانا كانت أول من يصله خبر خطبة إحدى الفتيات، ثم ينتشر الخبر بعد ذلك من بيتها لباقي بيوت البلد، وكانت إيجيليانا هي أولى المدعوات لأعراس البنات، وتحمل بنفسها طبق الحنة وتبدأ حفلة تحنية العروس، ثم تتعهدا بالتجميل

ورسم الحواجب وتشذيب الأهداب، كما تعلمت من أمها اليونانية، حتى تبدو العروس هي الأجل في عيني فارستها القادم الذي سيخطفها على حصان، ثم تسمع إيجيليانا العبارة المكررة على أذنيها من كل عروسة، وفي كل فرح تحضره وتجالل فيه ..

"عقبالك يا إيجيليانا"

إلا أن هذه الأمنية لم تكن لتتحقق أبداً لإيجيليانا، فقد ظلت الحلم المستحيل لشباب البلد، والحلم الموثوق في استحالاته لكل فتياتها، فكيف لا تكون صديقة الجميع؟!

مات والد إيجيليانا فجأة، وكان الموت كان يوماً ذا موعد، وأصبحت إيجيليانا من بعده عزباء وحيدة، ملكة تمتلك العرش ولا تجرؤ الجلوس عليه، فتكاثر الخطاب على باب بيتها، فالمستحيل قد يصير اليوم ممكناً، كان في موت أبيها فرصة للجميع، حتى يُعيدوا الكرة ويتقدموا للزواج منها، فيحظى الفائز بها وحده بجمالها الأسر، ويحظى وحده كذلك بما ورثته عن أبيها من أطيان وأموال، لكن الغريب أن إيجيليانا ظلت ترفض وبإصرار كل خطابها، تماماً كما كان يفعل أبوها، حتى اكتشف الجميع في صباح أحد الأيام، أن بيت إيجيليانا قد تم إغلاقه بالضبة والمفتاح، وإيجيليانا نفسها قد اختفت تماماً، ذابت كقطعة سكر في بحر الحياة ولم يبق منها حتى أثر حلوتها، ولم يعد يعرف لها أحد أي طريق جرة!!

تكاثرت الأقوال عما جرى لإيجيليانا، وما هو مصير أموالها وأطيانها كذلك، فمنهم من قال بأنها قد سافرت لأهل والدتها في اليونان، ومنهم من قال بأنها قد سافرت لأهل والدها

في الصعيد، ومنهم من قال بأنها قد تزوجت من مأمور المركز رغماً عنها، وطبقاً لوصية قد تركها له أبوها، وأنها أصبحت محبوسة الآن في بيته، ومنهم من قال بأنها قد لافِت على أحد الشباب الغرباء، وخافت من انتقام أهل البلد منها، إلا أن أحداً لم يستطع تقديم الدليل على صدق روايته، حتى دارت الأيام وتعاقبت السنون، وكانت كفيلة بنسيان الموضوع برمته، حتى عادت إيجيليانا أخيراً .

ورغم أن كل شيء قد تغير في البلد، فإن تجدد الحنين لإيجيليانا، قد أعاد عقارب الساعة إلى الوراء، وبدا وكأن الزمن قد توقف برهة، وأعاد عجلته إلى ذلك اليوم الذي غابت فيه، فعادت الظهور المحنية إلى استقامتها قائمة شامخة، وتذكرت الوجوه المكرمشة نضارتها وألقها، أما الشعيرات البيضاء فقد توارت، خلف ظلام ليل بات ينتظر فجرًا جديدًا، ليحيء مفعماً بالأمل والرجاء والثقة في المستقبل، فقد عادت إيجيليانا، وعادت معها كل الأحلام!!

وبدأ الجميع يتساءل في لهفة ..

هل ما زالت إيجيليانا كما هي؟!

هل ما زالت بضة بيضاء متوردة الخدود؟!

وهل ما زالت ابتسامتها تنثر الندى فوق زهور الربيع

لتنفتح؟!

هل ما زالت إيجيليانا كما هي .. إيجيليانا؟!!

تكاثر الخطاب مرة أخرى ووقفوا على باب إيجيليانا، حتى إنهم قد بدعوا في الشجار أمام بابها المغلق، أحدهم يريد أن يتزوج إيجيليانا، حتى تظل له هو وحده في البيت ويغلق

الباب عليها، والآخر يقول بأنه سيتزوجها لأنها نموذج يجب أن تقتدي به كل بنات البلد، أما الثالث فيقول بأنه سيجعل من أموال وأطيان إيجيليانا التي أصابها البوار، خيراً يعم على كل أهل البلد، أما رابعهم فيقول بأن إيجيليانا من حقه هو فقط، وأن أول شيء سيفعله بعد أن يتزوجها هو تغيير اسمها هذا الغريب "إيجيليانا"، لأنه من أسماء الكفار الذين لا يجب أن نقلدهم في كل شيء، وسوف يسميها باسم من أسماء السلف الصالح درءاً للفتنة، وخامس وسادس وكثيرون غيرهم، كلُّ كان يريد إيجيليانا له، وحده فقط، حتى علت أصواتهم على باب إيجيليانا، فسمعوا صرير الباب وهو يفتح مرة أخرى، ليروا للمرة الأولى إيجيليانا عن قرب، يرونها رأي العين التي أرهقتها الذكريات من بعد غيبتها الطويلة!!

تعلقت العيون للحظة، وهي تتفحص وجه وجسد إيجيليانا، وسادت لحظات الصمت بعد أن تنحى الكلام، وتسرسبت الذكريات من بين الأصابع التي غطت الأفواه، وبدأت العيون تقل من حول إيجيليانا، رويداً رويداً، بعد أن شرع كل منهم في الانصراف بهدوء المتخفي الذي يتمنى ألا يراه أحد، كانت ظلنتها الأولى وهي تفتح الباب يغلفها شوق الغياب فطغى بزيفه على ما فعلته بها الأيام، وقد فعل معها الزمان فعلته التي يفعلها في كل بني آدم، ودارت عليها الرحي القاسية التي تطحن ولا ترحم، فبدت أقصر من المعتاد، بعد أن انحنى ظهرها قليلاً، وزاغت عيناها ولم يعد فيهما ذلك السحر واللمعان القديم، أما شعرها البني فقد اشتعل بخصلات بيضاء، زحفت على الجبين الذي نقشت عليه التجاعيد أطلال آثار زمن

جميل مضى .

لكن أحداً من هؤلاء لم تلاحظ عيناه شيئاً آخر غريباً،
شيء أدركته عينا شاب واحد ظل واقفاً ولم يغادر!!

لم يكن غريباً أن توافق إيجيليانا سريعاً، على زواج
ابنتها التي أنجبتها من زوجها .. الذي تزوجته أثناء فترة
غيابها .. من هذا الشاب الذي كان واقفاً بين مريديها، بعد أن
تقدم إليها بلا تردد ليطلب يد ابنتها منها، ليحظى وحده بالفتاة
وسط ذهول الجميع واستنكارهم، فقد كانت الفتاة صورة طبق
الأصل من أمها، ولا تقل جمالاً عنها في شبابها .

كانت الابنة الصغيرة تقف بجوارها عندما فتحت الباب،
لم تلاحظها عيون الخُطاب من كبار السن وذوي الظهور
المحنية، عيونهم قصيرة النظر كانت تنظر فقط على إيجيليانا،
التي طالما تمنوها ولم يصلوا إليها في يوم من الأيام، فعاشت
صغيرة لا تشيخ في أحلامهم فقط، ولما عادت عادوا إليها
يطلبون أحلامهم عندها، لا ليطلبوها، سجنوها في الأحلام،
وقتلوها بقسوة الأيام، فأبى إلا أن تحطم سجنها، وتعيد أيامها
في شباب ابنتها، بعد أن أدركت في سنوات غيابها الطويل، أن
هؤلاء الشيوخ أبداً لا يستحقون !!

لعلها تتم هكذا ..

(8)
فندق المحروسة *

* في مايو ٢٠١٢

لم تكن مجرد شجاعة مني أن أعود لذات المكان، بعد أن مرت كل تلك السنوات، ربما يكون الحنين إلى الماضي، ربما .. ، حتى ولو كانت تسكن في ذلك الماضي بعض الذكريات المؤلمة، لكن تمر السنوات بحلوها وبمرها، ولا يبقى لنا من أيامها إلا بقايا من عطر يتوارى خلف زخات عرق يتساقط من جبهتنا المتعبة في طريقها الطويل، لتظل تلك الصورة الفيروزية الباهتة التفاصيل، هي التي تلقي بطرف شالها الحريري ليلمس جدران القلب المشتاق لكل لحظة مرت علينا، ولن تعود، من لحظات الماضي البعيد الجميل .

كانت الظروف واحدة، والعرق المتصبب من جبهتي كذلك واحد، وذات الطقس الحار الرطب في منتصف شهر أغسطس، في نفس المدينة الساحلية التي تلقيت فيها تعليمي الجامعي، وقد كان الطلب واحداً كذلك، وهو المبيت في فندق لمجرد ليلة واحدة، لم يكن هناك من خيار أمامي إلا في هذا الفندق، كان متميزاً فعلاً، مرت أكثر من خمسة عشر عاماً، فقط لا غير، فهل يا ترى سوف أجده كما هو، بعد تلك الأيام التي فارقت بين زيارتي الأولى للمدينة وللفندق، وزياتي هذه التي ربما تكون الزيارة الأخيرة!!

وصل بي القطار متأخراً عن مواعده كالعادة، بعدما أغلقت كل المكاتب أبوابها مبكراً عن مواعدها، أيضاً كالعادة، وكان علي أن أبحث عن مكان أبيت فيه لصباح اليوم التالي، حتى أضم أوراق أولى خطواتي في التعليم الجامعي، إلى قائمة أولويات الموظفين الصباحية، بجانب أكواب الشاي وسندوتشات الفول بالطحينة، وحتى تقترب أولوية التوقيع على

أوراقى، من أولوية حل الكلمات المتقاطعة في جريدة
الجمهورية التي تفتersh المكتب!!

لم يكن العثور على فندق مهمة شاقة على الإطلاق، ففي
تلك المدينة الساحلية ذات التاريخ العريق في الماضي، كانت
الفنادق والبنسيونات ذات الغرف الواسعة والأسقف العالية
بمبانيها ذات الواجهات الإيطالية الكالحة، والتي ظلت جزءاً
أصيلاً مما تبقى من هذه العراقة، لكن الفندق الذي عثرت عليه
بالقرب من مبنى الجامعة كان من فنادقها الحديثة نوعاً ما،
والذي جعلني أقدم رجلاً وأوخر أخرى، وأنا أتوقع أن يكون ثمن
قضاء ليلة فيه، أبعد من حدود احتمال محافظة طالب ثانوي
سابق، يبدأ في طريق "الفشخرة" الجامعية الطويل .

ولكن خاب ظني، ولم تنتهك عذرية محفظتي، وبقي فيها
ما يحفظ لها الحياة يوماً آخر ببقايا الشرف، وبجنيهاً قليلة
لأشتري بها بعض الطعام، حتى أسد رمقي وأسترد معه نفسي
المقطوع من الشعبة وكثرة المروق بين الأجساد في قطارات
سكك حديد مصر "المكحكة"، وتحت حر شمس الصيف
الحارقة، فكان اللقاء الرومانسي الناعم بيني وبين الدش البارد
في حمام الغرفة، مع رشات أمطاره الباردة التي بدأت تداعب
شعر رأسي، حتى وصلت إلى قمة الانتعاش والمتعة، والتي لم
يُخرجني منها إلا تلك الدقات اللعينة القاسية التي سمعتها على
باب الغرفة، وكأنها كانت تدق على رأسي فاستثتت غضباً .

كان تأخري في فتح الباب كافياً جداً، لكي يستثيط
الواقف في الخارج غضباً هو الآخر، ولكن لم يكن هناك بدٌّ من
ارتداء ملابسى وليكن ما يكون، ولما فتحت الباب بدأت أشعر

بقصر قامتي لأول مرة، مقارنة بما رأيته أمامي من أطوال فارعة لستة أبدان، قد يضطر معظمهم لأن يحني رقبتهم كثيراً، حتى يدخل من باب الغرفة، ولكن الشيء الأغرب من قاماتهم هذه الطويلة الغريبة، علي أنا طبعاً، كان هو زعيمهم الذي فاقهم في الطول، والذي شرع في تأنيبي لأنني لم أفتح له الباب بسرعة، فاستجمعت بقايا شجاعتي التي قررت أن تهرب وتتركني وحدي أواجه كل هؤلاء، بسبب واضح جداً ومنطقي، ويقف أمامي، أيتها الشجاعة كم أنت جبانة حقاً، وصرخت في وجه زعيمهم بقسوة مصطنعة

"إنت مين يا بني آدم إنت!!"

كانت قلّة خبرتي بالحياة في هذه السن الصغيرة، هي التي جعلتني لا أعرف ماهية هذا "البنّي آدم"، وهي كذلك التي جعلتني أصفه بهذه الصفة التي جعلته ينتفض غضباً كمن لدغه ثعبان، ووسط دهشة من مرافقيه، ربما لأنه لم يكن كذلك لا أدري!! فقد كان بالفعل ضابط "أمن دولة"، وقد أتاني وسط خمسة من مساعديه ومخبريه .

هكذا قال لي بلهجة أمرة وهو يطالبني بالبطاقة الشخصية، فأيقنت بأن ليلتي هذه اللعينة السوداء التي بدأتها بدش بارد، لن تمر على خير أبداً، وربما تنتهي بي على أسفلت الحجز البارد أيضاً، فمع هذا الذي كنت أظنه "بني آدم" في هيئة شيطان، وظهر لي في النهاية أنه ضابط من "حباينا الحلوين" ولكن في هيئة "ملكي"، ليترك لي مهمة الوصول إلى "كراماته" بعد ضرب الأخماس في الأسداس، لمعرفة شخصيته الرسمية رجماً بالغيب، بين خمسة من مرافقيه

وسادسهم هو!!

مرت دقائق الصمت رتيبة وثقيلة، وهو يتفحص في بطاقتي الشخصية، ملقياً علي تعليقاته الساخرة، عن هبتي الغريبة في خلقة جنابه بلا أي داع لذلك، وكيف لا أفتح لضابط مباحث وأتركه هكذا يرن وهو يدق على باب غرفتي الضعيف، والسبب مجرد تفتيش عادي لحفظ الأمن!! كما قال لي، لأننا كطلبة محل شبهة دائماً!! وكأن علي أن أسأل السماء عندما تمطر فوقي من دش الحمام، عن ذلك الهاتف الداعي على باب الغرفة، لأهرع وأفتحه لجنابه وأنا عاري الجسد، لأترك له مهمة تجفيف جسمي بالفوطة، والشرطة في خدمة الشعب العريان، كأحدى مهمات حفظ الأمن من جنابهم قبل بدء العام الدراسي الجامعي، الذي يبدأ بالطبع بجمع المشبوهين من الطلاب، وقرص آذان الوارد الجديد من أمثالي .

وبعد توسلات من موظف استقبال الفندق، الذي أتقن تمثيلية حرصه على مصلحتي، وكأنه لم يدلهم على غرفتي ومن دون أي صفعات على قفاه، حتى تنازل حضرة جناب الضابط عن حقه في مرمطة كرامة جنابه، لما أنعمت عليه بلقب "بني آدم"، وظل كما هو "بني مباحث"، وتنازل أيضاً عن اصطحابي معه للقسم، وفي الأقسام يطلو الكلام، لكنه قد أصر على أن يأخذ بطاقتي الشخصية معه، ربما للذكرى لا أدري، أو لعرضها على أمن الدولة لفحص خطورتها الجمة، مطالباً إياي بالذهاب لتسلمها من القسم في اليوم التالي، وقد كان له ما تمنى، فقد ذهبت فعلاً في اليوم التالي، ولكن إلى بلدتي البعيدة، حتى أستخرج بطاقة شخصية جديدة، بدل فاقد،

وحتى لا أصبح أنا شخصياً من المفقودين "ويا دار ما دخلك شر"، لأترك بطاقتي لدى جنابه حفاظاً على الأمن العام، من أي مخططات إرهابية قد أحيكها من خلف "بشكير" وارد مصانع المحلة!!

لم تكن لدي الشجاعة الكافية، حتى أمر على الفندق طوال السنوات التي قضيتها في دراستي الجامعية، فقد ظل يراودني شعور مخيف بأن بطاقتي الشخصية القديمة، التي غيرتها أكثر من مرة، قد ظلت معلقة على باب الفندق، وقد كتب عليها "ابحث مع الشرطة"، أو أنها ظلت موضوعة في قوائم ترقب الوصول لموظفي الاستقبال، باعتباري قد صرت الإرهابي الأكثر خطراً على أمن السياحة والفنادق، بفراري هذا المريب من حضرة سعادة الضابط، الذي كان يترقب وصولي للقسم في اليوم التالي لتسلم بطاقتي الشخصية الضعيفة، لأقضي ليلة زفافي الأولى مع مخبريه الأقوياء، عقاباً لي على تكدير الأمن العام، بتكدير مزاج جنابه بالوقوف على باب غرفتي ثلاث دقائق كاملة، وأنا أرتمي ملابسني!!

ولا أدري لماذا وسوس لي شيطان شجاعتي مرة أخرى، بعد أن مرت أكثر من خمس عشرة سنة، لأذهب مختاراً في ذلك اليوم المشابه للماضي، لأبيت في نفس الفندق، بعد أن قررت ترك البلد بأكملها والسفر للخارج، وكان علي استخراج شهادة من جامعتي، فوصلت لأجد كل المكاتب مغلقة مبكراً كالعادة، فقررت المبيت في الفندق المجاور للجامعة، لكن ليس كالعادة، وقد كانت فرصة سائحة حقاً، حتى أمحو عار جبن الأيام الخوالي، وبحثت عن شجاعتي الضائعة مني منذ زمن، لأفعلها

وليكن بعدها ما يكون .

لم أكد أنتهي من استجماع كل مخزون شجاعتي،
والتأكيد على نفسي بأن الأيام دول، وقد ماتت ناس وحييت على
وجه الأرض ناس، والمؤكد أن الضابط الذي فررت منه ذات
يوم في الماضي، قد بات يجلس الآن على أقرب مقهى ليدخن
الشيشة، وهو ينعى مع كل نفس من دخانها أيام عزه وجبروته
المفقودة، بعد أن ناله من الميري فقط ترابه، فرقد التراب
متراكماً على قفاه، وكما أنني قد صرت من المعدودين في
مهنتي، فمن المؤكد أنه قد صار من المنسيين في مباحثه، حتى
هممت بدخول الفندق الذي كان مبناه ما زال على حاله، وإن
أصابه كثير من الإهمال، وبدا وكأنه ..، لم يعد فندقاً من
الأساس!!

كان كل شيء قد تغير في الداخل، فلم يعد هناك استقبال،
ولا صالونات، إنما ردهة كبيرة تمتلئ بمجموعة كبيرة من
جنود الأمن المركزي!!، هل هؤلاء ينتظرونني كل هذه المدة؟!،
كل هؤلاء!!، لا يمكن طبعاً، يمكنهم قفشي من أي مكان!!، لكن
لا يبدو أنهم في مهمة أمنية أو ما شابه، فقد كانوا يجلسون
بمنتهى الأريحية في ردهة المكان، وبعضهم يلبس ملابس
الرياضة، ويلعبون الدومينو والطاولة والورق، مع وجود
"كائنات" كبير في نهاية الردهة، يبيع البسكويت والمأكولات
والعصائر، وبراد كبير يغلي فيه الماء باستمرار لعمل الشاي .

بدا لي أنني قد دخلت إلى مكان غريب فعلاً، وفجأة
تحولت كل العيون لتتظر إلي بمنتهى الريبة، فقطعت شكهم
وريبتهم بالسؤال عن الفندق، وماذا جرى له، فضحكوا جميعاً

على سؤالي، وقالوا لي بأن المكان قد صار استراحة لجنود
الأمن المركزي!!
تركت الفندق سابقًا، واستراحة الأمن المركزي حاليًا،
وأنا كلي ثقة بأن هذا هو الوقت المناسب، حتى أرحل عن هذا
البلد!!

تمت ..

(9)
من الذي قتل الإمام؟! *

* في مايو ٢٠١٢

طال سجود المصلين في الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة في المسجد الجامع الكبير، ورغم شدة وورع وتقوى ذلك الإمام، إلا إنهم لم يعتادوا منه الإطالة في السجود إلى هذا الحد، فقد امتد سجوده لأكثر من نصف ساعة، حتى نفذ صبر المصلين، ونفذ كذلك كل محصولهم من الأدعية والتسبيحات، وكرروها أكثر من مرة، حتى بدأت أصوات همهمات بعض المصلين المكتومة الصدى في حصر الجامع المتهالك، تتعالى بتكبيرات يائسة، عسى أن يسمعها ذلك الإمام، فيفيق من خشوعه هذا الزائد عن المعتاد، أو ربما من عفوته في سجدته هذه التي طالت أكثر من اللازم، إلا أن الإمام الساجد لم يستجب لأي من تلك التكبيرات اليائسة!!

أصبح الموقف حرجاً للغاية، ففي تلك البلدة المؤمنة الكبيرة، التي لا يوجد فيها إلا هذا المسجد الجامع الكبير، وبعض الزوايا الصغيرة الأخرى المتناثرة، والتي لا تصلح لإقامة صلاة جمعة فيها، فكان من الصعب على أي من أهل البلد، أن يمر مروراً عابراً على الجامع في مثل هذا التوقيت الحرج، وقبل انتهاء الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة، حتى لا يراه المصلون بعد أن يسلموا في الصلاة، فينعتوه بعدم إدراك صلاة الجمعة، التي لا تجوز من دون الاستماع للخطبة، فما بالك بمن يلحقها في الركعة الأخيرة، فيراه المصلون واقفاً في الصف الأخير لمجرد إثبات الحضور، فينضم إلى زمرة المنافقين الذين لا يقومون للصلاة إلا وهم كسالى، في بلد يعرف سكانها بعضهم البعض، وبالإسم!!

ورغم أن الجامع الكبير قد اشترك في بنائه كل أهل البلد،

ووضعه في وسط البلد تمامًا، حتى يكون قريبًا من القاضي والداني، فإنه لم يكن اسمًا على مسمى أبدًا، فلم يكن الجامع كبيرًا بالقدر الذي يتسع لكل أهل البلد، ويكاد بالكاد يكفي نصف عدد الرجال فيها، لكن أحدًا لم يلحظ ذلك في يوم من الأيام، فالجامع يمتلئ دائمًا في يوم الجمعة، وهذا خير دليل على أن القلوب في البلد عامرة بالإيمان، خصوصًا بين أصحاب الصفوف الثلاثة الأولى من أعيان وكبار البلد، والذين يحرصون دائمًا على حضور صلاة الجمعة قبل الأذان، مشكلين حاجزًا كبيرًا من الجلايب الكشمير التي تغطيها العباءات الجوخ السوداء الثقيلة، والتي يتمسكون بارتدائها حتى في أشد أيام الصيف حرارة، بينما تتوالى رنات حبات مسابحهم الطويلة ذات التسع والتسعين خرزة، والتي تتدلى من طولها لترقد على حصير الجامع، وكان قائدًا ما يقود تلك "الأوركسترا" في تتابع مدهش!!

أما باقي صفوف المصلين في الجامع، فكانت كالعادة تغلب عليها العشوائية، ولمن يلحق أولًا، وقد يبقى فيها بعض فرجات بعد الدعاء وقبل الإقامة، حتى يأتيها الفرج بدعوة الإمام للمصلين بسد الفرج، والصلاة صلاة مودع لأن النفس يخرج ولا يرجع، وهكذا ظن المصلون في الإمام، بعد أن طالت سجده ولم يستجب لأية محاولات منهم للتكبير بصوت عالٍ، عسى أن يسمع لهم كما يعتاد المصلون فعله لتنبه الأئمة، عندما ينسون ويخطئون في تلاوة القرآن، أو عندما يسهون عن عدد الركعات، فبدأ الجميع يُوقن بأن هذا الإمام قد مات حقًا، والبقاء والدوام لله .

كان هذا التفكير والحكم قد صار جمعياً، رغم أن القرار والبيت فيه ظل قراراً فردياً بالفعل، فقد استمر الجميع في سجودهم الذي طال، وفي الوقت الذي ينتظرون فيه القرار من أصحاب الصف الأول، عسى أن يقوموا بأي تصرف للخروج من هذا المأزق الكبير، إلا أن هؤلاء النخبة في الصفوف الأولى الذين توسم المصلون فيهم القدرة على اتخاذ هذا القرار المهم، أقل من مستوى الحدث كالعادة، فلم يكن لديهم القدرة على اتخاذ أي قرار أو رد فعل يُرضي جميع الأطراف، والواضح أن هؤلاء الذين تصدروا الصلاة في صفوفها الأولى قد ظلوا ينتظرون بعضهم البعض كذلك!!

تعلقت الأفكار والرؤوس ببعضها البعض، ودار بينها حوار عاصف صامت، وتمنى الجميع لو أن حصر الجامع كان خط اتصال سريع بين تلك الأفكار، التي ظلت تنتظر وتنتظر، بينما لم يجرؤ أحد منهم على قطع صلته ليرفع رأسه، ويرى ما الذي أصاب هذا الإمام، لينقذ برفعة رأسه هذه الجميع ومن قبلهم نفسه من هذه السجدة التي قد تؤدي بهم إلى الشلل المؤقت، أو ربما إلى الموت الدائم!!

تعالت الأصوات بالتكبيرات مرة أخرى، كانت قادمة من الصفوف الخلفية للمصلين، عسى أن يسمعها أصحاب الصف الأول، حتى يتخذوا قراراً هو واجب أصيل من واجباتهم، فلماذا لا يتقدم أحد منهم ويستخلف الإمام الميت لا محالة في الصلاة؟! ليس هذا من واجبات من قدموا أنفسهم إلى الصدارة دون باقي الناس؟! ثم تعالت التكبيرات أكثر وأكثر، تلك التكبيرات التي كانت تتلوها دعوات وتضرعات إلى الله، بأن يكشف عنهم

هاتين الغمتين، غمة غياب الإمام، وغمة قلة حيلة صفوة المصلين المترددين في الصف الأول، الذين يبدو أنهم ينتظرون مبعوثاً من العناية الإلهية، حتى يتخذ القرار نيابة عنهم .

لم يعد هناك بدء من التضحية من أجل المجموع، وكان المضحى هو المؤذن، والذي يُبلغ عن الإمام في الصلاة ويصلي كذلك في الصف الأول، وبعد أن سكت طويلاً فقد اعتاد على التردد فقط خلف الإمام، ولم يكن في يوم من الأيام أهلاً للإمامة، وانتظر القرار ممن ظنهم أكثر منه فقهاً وعلماً، فترك لهم المجال كي يتقدموا لاستكمال الصلاة، ولكن طال انتظاره هو الآخر، فلم يجد بدءاً من التقدم واستخلاف الإمام في الصلاة، حتى ولو لم يكن ذلك على أصول الفقه الصحيحة، التي لا يتقنها فعلاً فهو مجرد مؤذن، ولكن ما هو الحل في ذلك الموقف، فلو انتظر قرار أهل الصف الأول، فربما ظلوا ساجدين هكذا ليوم القيامة .

كبر المؤذن تكبيرة الفراغ من السجود والجلوس للتشهد الأخير، فكبر خلفه كل المصلين بتهيئة الراحة التي طال انتظارها، ثم تقدم المؤذن بركبتيه خطوتين إلى الأمام، وتلا التشهد الأخير في دقيقة واحدة، ثم سلم على اليمين وعلى الشمال، طالباً رحمة الله وبركاته التي حلت على الجميع في الجامع، وهنا هب لابسو العباءات السوداء وأحاطوا بالمحراب والقبلة ومصلى الإمام، أما باقي المصلين فلم يستطيعوا رؤية أي شيء مما كان يحدث في المقدمة .

لم يكن مسموحاً لأغلب المصلين حتى بالتقدم، لمعرفة ملابسات حادثة قد شاركوا فيها جميعاً، حتى تواترت لهم أخبار

غير مؤكدة، بأن كبار البلد لم يجدوا الإمام ميتًا ولا حتى وجدوه حيًا، فهم لم يجدوه من الأساس!! ولم يذكر من رواوا القصة للناس أي سبب مقتع لذلك، فما الذي يدفع الإمام لترك الصلاة والمصلين في عز السجود ويذهب؟! حتى تعددت الروايات والتأويلات، فمنهم من قال بأن الإمام قد أصابته لوثة وربنا يعفو عنه، ومنهم من قال إنه قد صار من أهل الخطوة وصاحب كرامات، لدرجة أن البعض قد أفتى بأن الإمام لشدة ورعه وتقواه قد رفعه الله إلى السماء في عز سجوده وفي صلاة الجمعة، كما رفع إليه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، حتى أتى الخبر اليقين، والذي وأد كل تلك التأويلات أو الخرافات في مهدها، فقد وجدوا جثة الإمام وهو مذبح وملقى خلف سور الجامع!!

لم يعرف أحد حتى الآن من الذي قتل الإمام التقي الورع، ثم ألقاه بجوار سور الجامع، وهل قُتل وهو يُصلي في المحراب، أم أنه ترك الصلاة والساجدين وذهب بنفسه لقضاه، وما الذي جعله يفعل ذلك أساسًا؟! لكن المهمة الأهم التي شغلت كبار البلد وأعيانها، كانت هي البحث عن إمام آخر للجامع، بعد أن تركوا مهمة تحديد قاتل الإمام القديم لتأويلات أهل البلد، الذين أدلى معظمهم بدلوه في القضية، والكل يزعم بأنه الوحيد الذي يعرف الحقيقة المخفية، رغم أن أكثر من نصف أهل البلد لم يحضروا للصلاة في المسجد يوم الجريمة، لكن أحدًا لا يريد الاعتراف بعدم حضوره للصلاة، وحتى الذين حضروا الصلاة لم يروا أي شيء قبل الجريمة أو حتى بعدها، لكن ما زال الكل يتكلم ويفتي!!

أما السر الحقيقي لمقتل الإمام وقت صلاة الجمعة، فسوف يرقد حتماً في صندوق أسرار هذا البلد، ذلك الصندوق المغلق المكتظ بأسرار أخرى كثيرة، لا يعلمها إلا كبارها وأعيانها، ذوو العباةات السوداء والمساج الطويلة!!

تمت ..

(10)

البلعوطي بين حكم التاريخ.. وزنقة الفسيخ *

* في أبريل ٢٠١٢

سعيد البلعوطي، عين أعيان تباعين الميكروباص في بلدنا، والذي يعرفه كل ركاب الميكروباصات، لكن ليس بسبب اسمه هذا "المبلعظ"، ولا بسبب هيئته "المبلعطة" كذلك، وإنما بسبب جملة الأثيرة التي اشتهر بها، والتي كان يلقيها على مسامع الركاب عندما يمر ميكروباصه "المليك" تحت كوبري البراميل، ذلك الكوبري الذي يُعتبر اسماً على مسمى، فقد كانت ترقد تحته آمنة وبمنتهى الوداعة، مئات البراميل الخشبية المغطاة، وعلى كل غطاء وضعوا نصف قالب طوب، ففي هذا المكان يوجد معمل الفسيخ الأشهر، ليس في تلك البلدة وحدها، ولكن في كل بلاد المركز، ولا يوجد فم في تلك البلاد لكبير أو صغير، إلا وقد امتلأ به في شم النسيم، ثم تكررعه من معدته مطلقاً رائحة زفارته المختلطة بروائح البصل الأخضر والملاثة، تلك الزفارة التي كنا نشمها من فوق الكوبري، وتهل علينا بشائرها قبل صعود الكوبري بكيلومتر وأكثر، فتتحول أنوفنا المزكومة إلى أنوف أكثر حساسية للشم من أنف الكلب "هول"!!

ورغم كل تلك الإشارات، والروائح التي يعرفها الجميع، فإن البلعوطي كان لا يتردد ويعلن عن الوصول للمكان، مطلقاً جملة الشهيرة التي لم يمل أبداً من تكرارها، منذ أن عمل تباعاً على الميكروباصات وهو صبي لم يتجاوز عمره عشر سنوات، حتى فتح عليه ربنا وصار من فئة ملاك الميكروباصات أو أصحاب "العجل" كما يقول السائقون، لكنه أبداً لم يتنازل عن شبعطته على أبوابها وتشبثه بالحديدة، لينادي على الركاب ويلم الأجرة، والتي يستهلها في كل مرة بتلك الجملة، التي ما إن

يسمعها الركاب حتى يرددوها معه كلمة كلمة ..

"أنا شامم ريحة نتنة يا جدعان"

وبمجرد أن تصلنا "نتانة" هذه الجملة، حتى نتحول جميعاً إلى قطط بلدي قد وقفت ذيولها، لكن ليس على رائحة زفارة الفسيخ، إنما للبحث والشمشمة في كل الجيوب عن الأجرة .

وتلك هي حقيقة إطلاق البلعوطي لتلك الجملة، فلم يكن الأمر يخص تأذيه من رائحة الفسيخ على الإطلاق، فقد كانت تلك الرائحة النفاذة على كل حال أخف كثيراً من تلك الروائح المنطلقة علينا من الميكروباص ذاته، سواءً من شكمانه المفوت بدخانهِ الأسود الغطيس، أو حتى من شكمانات أمعاء الركاب، المسموع منها والمشموم ولا مواخذه يعني، لكن كان سماع الركاب لتلك الجملة يُعد إيداناً من البلعوطي بنفاد صبره في انتظار الأجرة، وجرس إنذار من جنابه، لكل من تسول له نفسه الأمانة بالسوء، ويوجل الدفع متعللاً بأي حجة، حتى يصل الراكب الألعبان لآخر الخط، ويدفع وهو نازل من الميكروباص، وقد لا يدفع!! فيعلم على البلعوطي ويصير أضحوكة بين التباعين، وهنا ينزل له البلعوطي شخصياً ويلقنه الدرس على الطريقة البلعوطية القاسية، والتي تبدأ بالشتم والتفريع، ثم بالصفعات والشلايت، حتى تنتهي بترك الزبون في حطة مقطوعة، وربما بنقعه في برميل من براميل الفسيخ، حسب المزاج البلعوطي ساعته .

وكان هذا هو مبدأ البلعوطي دائماً، حتى ينجح في إدارته للميكروباص، والتي استأثر بها لنفسه، ليس لأنه صاحب المال

فقط، والسائق يعمل لديه باليومية، ولكن لأنه بدأ سلم
الميكروباصات من أول درجة، حتى أكرمه الله بامتلاك عجل
خاص به، من بعد طول التنظيط على الخط، والشعبطة في حديد
ميكروباصات الغير، وهو يثابر ويضع القرش على الربع جنيه،
حتى صار له ميكروباصه الملك، وقد كتب عليه بالبنت العريض
"بص بعينك وارحم بقلبك"

ولأنه يعرف جيداً ألاعيب التباعين أمثاله، فظن أن عمله
تباعاً على الميكروباص سوف يكون هو أفضل قرار، حتى لا
يسلم القط، ويبيده، مفتاح الكرار!!

ومنذ هذا التاريخ، وقد صار البلعوطي مثلاً أعلى لكل
التباعين، بل واعتبره بعضهم شيخهم الكبير، وصاحب الكلمة
المسموعة التي تسري على الجميع، وفي الوقت الذي يزداد
فيه حقد السائقين عليه، لأنه كان في جرة وطلع لبرة، ناهيك
عن حقد الركاب طبعاً، وهو الذي يشحنهم شحناً ويستفهم في
الميكروباص كما يُشحن السمك البوري ويُستف في براميل
الفسيح، فهو يُجلس ركابه على الكراسي كدفعة أولى، ثم يرص
الباقيين على حجر الجالسين كدفعة ثانية، أما الدفعة الثالثة فلها
على السقف العلوي متسع للجميع، لتبقى دفعة الشعبطة على
الأبواب محجوزة لمن سينزل قبل نهاية الخط، بينما يظل
البلعوطي ينادي ويصرخ طوال الخط ..

"نفر واحد نفر واحد"

وبهذا الأسلوب ظل البلعوطي يدير ميكروباصه، وعلى
أفضل ما يكون، ويعصر منه الذهب في كل يوم، بعد أن يكون
قد عصر ركابه عصراً على كراسيه، وصار المحظوظ منهم

الجالس من أول الخط، ودخل في الميكروباص ووجهه متورّد
كما خياشيم السمك البطي الطازج الذي يلعب في الشبك، ينزل
من الميكروباص وهو يقتلع نفسه منه قلعاً، وهو معصور
ومكمور كما الملوحة الرشيدي!!

إلا أن معضلة البلعوطي الكبرى قد بدأت عندما لاحظ
انخفاض عدد الركاب لديه، ورغم أن التحميل يتم بالدور في
الموقف، فإنه أصبح يملأ كراسي الميكروباص بالعافية،
والركاب الزيادة الذين كان يأخذهم في الطريق قد صاروا في
خير كان، وكلما اقترب أحد من الميكروباص ورأى البلعوطي
يقف بجانبه، حتى يذهب بعيداً ليركب الميكروباص الذي يليه،
وحتى في أيام الشتاء الممطرة المرحلقة، والتي يقل فيها العجل
على الطريق، كان الركاب اللنام يهربون منه كذلك، فلم ينسوا
تاريخه الأسود معهم، حتى جاء يوم لم يتوقعه الجميع .

غاب الميكروباص والبلعوطي نفسه عن الموقف، لأكثر
من شهر، ثم عاد إلى الموقف والكل ينظر إلى ميكروباصه في
ذهول، فقد تم تنجيد كراسيه وسمكرته وطلاؤه، حتى صار
كالعروس في ليلة الزفاف، واستقبل البلعوطي الركاب الذين
صاروا يركبون على وجل، لكن أحداً منهم لم يقبل بالجلوس
على حجر أحد، ولم يُسطح أحد منهم فوق السقف كالعادة، ولم
يوافق راكب واحد على أن يتعلق على الأبواب، وانطلق
الميكروباص في طريقه، وكلما اقترب منه راكب ورأى
البلعوطي معلقاً على بابه وهو ينادي، حتى يرفض الركوب
ويعود من حيث أتى، والبلعوطي يتميز من الغيظ، فيبدو أن
السبوبة لن تأتي بهمها، وما أنفقه على تزيين الميكروباص من

أجل هؤلاء اللئام سوف يضيع هباءً .

شرد البلعوطي في أفكاره، وكان يبدو عليه الهم واضحاً، حتى إنه لم يشعر برائحة الفسيخ عندما مر الميكروباص من فوق الكوبري، ولم يقل جملة الأثيرة، ولم يطالب حتى الركاب بالأجرة صراحة، وترك الناس تدفع له عند النزول من الميكروباص، وغرق في بحر تفكيره والتحسر على أيام عزه، والتي صارت في خبر كان، بعد أن دفع دم قلبه في تجديد الميكروباص، واعتبر أن الناس قد تغيرت، ولم تعد كما هي نفس الناس، وأقنع نفسه بأن هذه هي نهاية المعروف، الضرب بالكفوف، حتى سمع خبراً عجبياً، رواه له السائق الذي يعمل عنده .

التفت البلعوطي ناحية السائق، وطلب منه أن يعيد عليه ما قاله، فقد كان سارحاً في المصيبة التي ألمت به.

فقال له السائق:

"البقية في حياتك يا بلعوطي، معمل الفسيخ اتهد امبارح"

لم يندهش البلعوطي، وإنما رد بمنتهى الأسى:

"مش هوا بس اللي اتهد يا أسطي"

وسقط البلعوطي مغشياً عليه، وتم نقله إلى المستشفى، ولكن ظل الميكروباص يعمل، والغريب أنه قد عاد لطبيعته، لا تكف عجلاته عن الدوران، ولا تخلو كراسيه من الركاب، بل إنهم قد عادوا يتصارعون على الركوب فيه، وبدوا أكثر سعادة بعد غياب البلعوطي، وغياب رائحة زفارة الفسيخ كذلك، بتاريخيهما الأسود الذي لم ينسه الجميع، أما البلعوطي نفسه

فقد خرج من المستشفى أكثر سعادة، بعد أن عادت غلة
الميكروباص إلى سابق عهدها، فاكتفى هو بالجلوس في
الموقف، كشيخ عرب يدخن الجوزة، ويحصل الإيراد من
السائق بعد كل مشوار، وهو يقول في نفسه
"مش مهم الركاب الملاعين يشوفوني، المهم إن الغلة
آخر النهار تبات في جيبي"

تمت

(11)

الذكرى السنوية لكسر ماسورة الحنفية *

* في أبريل ٢٠١٢

تأخرت كثيراً عربة الجاز، التي تأتي كل شهر لتملأ "فنتاس" "الكوباتية"، في تلك القرية البعيدة الراقدة في حضان الجبل، لم تدخلها الكهرباء ولا حتى مياه الشرب، ولا يربطها بالطريق الرئيسي إلا مدق ترابي، لا تستطيع أن تسلكه إلا الدواب بحوافرها ذات السنابك الحديدية، لتمشي بجوار المصرف الذي غطته الحشائش من قلة المياه الجارية فيه، حتى صار ملاذاً لثعابين الشراقي التي أمنت على نفسها وتكاثرت على أهل القرية، فصارت تهاجمهم من الشقوق التي تملأ أراضيهم العطشى .

كان أهل القرية ينتظرون قدوم عربة الجاز بفارغ الصبر، حتى إنهم كانوا يتجمعون ويجلسون لها على الكوبري الذي بُني على المصرف ليصل القرية بالضفة الأخرى، حيث الغيطان ومن خلفها الجبل، ويظلون جالسين في محاولة يائسة للحصول على "كابون" جاز، ليُعمروا به لمبة جاز نمرة خمسة تُنير ليلاً ليلهم الحالك الطويل، أو يشعلوا به "بابور" جاز بفونية واحدة، ليطبخوا عليه طعاماً لأولادهم، بعد أن أعماهم دخان "الكانون" وحطبه الذي يظنون به كثيراً على الحرق من أجل الطبخ، لكونه قد ينفع في أي شيء آخر، فيخزنونه مع القش فوق الأسطح، حتى تأتي حريقة لتحرقه كله مع البيوت، فيقفوا أمام الحريق وهم يتعجبون، مع تسليمهم بحكم القضاء والقدر!! حتى تأتي عربة الجاز، خبر يتلقفه الناس أسرع من تلقف النار للجاز، تأتي ويجرها حمار "الطبلاوي" القوي، والطبلاوي هو "العرجي" الذي يتعهد توصيل الجاز لـ"الكوباتية"، في مهمة كان يرافقها شيخ الخفر شخصياً، مع

عشرة من الخفر المسلحين بالبنادق، وتبدأ تلك المهمة الصعبة جداً منذ بداية وصول الطيلاوي بعربته للكويري، وحتى سلامة وصول العربة والحمار إلى كوبانية الجاز الميري، ليظهر لهما في طليعة المستقبلين، الأستاذ "عوض" مدير الكوبانية، ويتسلمها من الطيلاوي كابون كابون، ثم يختم له على الأوراق، وهنا يضرب الناس كفاً بكف، وتنطلق الجملة الشهيرة التي أطلقوها على عوض

"طالما أخذها عوض يبقى عليه العوض"

وبعد أن يمتلئ فنتاس الكوبانية تماماً بالجاز، يبدأ عوض في توزيعه على الناس بالبطاقة، إلا أن الجاز لم يكن يكفي أسبوعاً واحداً من الشهر، وعندما يسأل الناس عوض عن الجاز، كان جوابه الدائم على طالبي كوابين الجاز "الجاز خلص والفتناس فاضي"

بعد أن يتبع جملته بضحكة غريبة، يحتار ف تفسيرها الناس بين التشفي أو الشماتة، إلا أن عوض لم يكن يمانع بتاتاً في اصطحاب السائلين حتى حنفية الفتناس، ويفتحها أمامهم، ليروا بأعينهم عدم نزول أي نقطة جاز منها، توحد ربنا!!

ورغم أن الأستاذ عوض، كان على دعاء دائم مع معظم أهل البلد، فإن أحداً لم يكن يجرؤ على شكواه لدى عمدة البلد، ولا حتى لشيخ الخفر، لسبب بسيط جداً، وهو أن العمدة مع شيخ الخفر كانا من الضيوف الدائمين على مكتب الأستاذ عوض نهاراً، كما كانا كذلك من شركاء سهراته الليلية، حول حجارة الجوزة المغمسة بالحشيش!!

ورغم انتهاء الجاز من الكوبانية، وتأكيد عوض على

ذلك بفتح الحنفية بنفسه أمام الناس، فإن الجاز كان يظل يُباع عيني عينك، لدى بعض التجار في الحارات الضيقة، ولكن بثلاثة أضعاف ثمنه، ويضطر بعض الناس للشراء مجبرين، بعد أن يضربوا أحماساً في أسداس، وعلى خاطرهم سؤال واحد، من أين يأتي هؤلاء التجار بالجاز، وفتطاس الكوبانية فارغ حتى آخر نقطة؟!

وينتظر الناس قدوم عربة الجاز كالعادة، حتى فوجئوا بقدوم الطبلوي وحده وهو يجري لاهثاً، وأنفاسه لا تكاد تلاحقه مثل كلاب الغيطان وهي تنبج عندما تهاجمها ذئاب البراري، ليشتكي للعمدة بأن لصوصاً قد طلعوا عليه من الجبل، واستولوا على عربة الجاز بكل ما فيها ولم يتركوا له حتى الحمار، لكن العمدة الذي لم يُفاجئه الأمر ولم ينتفض للحادث الجلل الذي ستعاني منه البلد شهراً كاملاً، التفت فقط إلى شيخ الخفر، وقال له بلهجة هادئة

"حاول تمسك الحرامية"

اشتدت أزمة الجاز في البلد، حتى هل هلال الشهر التالي، وقدمت عربة الجاز في حراسة مشددة من الخفر وشيخهم، الذي لم يمسك الحرامية حتى الآن، رغم أنه أعاد العربة والحمار، شيء تعجب له كثيرون من أهل البلد، فراقفوا العربة مع الخفر من أول الطريق وحتى وصلت إلى الكوبانية، وتم تسليم الجاز لعوض، فتقدم بعض شباب البلد ليشاركوه في توزيع الجاز على الأهالي، فرفض عوض ذلك رفضاً باتاً، وقال لهم غاضباً بأن هذا هو عمله، ولا يحق لأحد أن يشاركه فيه، أو بمعنى أصح أن يت رأس عليه، فزادت ثورة الشباب عليه،

خصوصاً أن الجاز قد انتهى بعد يوم واحد فقط من بداية التوزيع، وهذا ما أكده عوض للناس، وأخذهم كالعادة للحنفية ليدلل على كلامه .

وبعد موجات من الشد والجدب بين عوض وبين الشباب الثائر على نقص الجاز في الكوبانية، اندفع جمع كبير من أولئك الشباب واقتحموا الكوبانية، وقيدوا عوض بالحبال، ثم كسروا ماسورة الحنفية، فاندفع الجاز من الماسورة المكسورة بغزارة، واكتشفوا بأن الحنفية لا تعمل، وقلبها محلول من الداخل، وتلف يدها لتفتح وتغلق على الفاضي، حتى لا تنزل منها أي نقطة جاز، وعوض يصرخ فيهم وهو مقيد بالحبال، بأنهم سوف يدفعون ثمن تعديهم عليه غالباً، وأنه سيتهمهم بأنهم هم من قام بتعطيل الحنفية، وكسروا الماسورة ليسرقوا الجاز!!

وأتى شيخ الخفر بجميع رجاله، وطوقوا الكوبانية من كل اتجاه، وتم حل قيود عوض، ثم قبضوا على كل من كان موجوداً في الكوبانية، وتم ترحيلهم إلى المركز، وثركت الكوبانية في عهدة عوض، حتى حضرت النيابة للتحقيق ومعاينة مكان الحادث، فاستقبلهم عوض أحسن استقبال، وقادهم إلى حيث الحنفية المكسورة، وأراهم الفنتاس الذي كان فارغاً عن آخره!!

فوجئ أهل البلد بتحويل أولادهم للمحاكمة بتهم كثيرة، على رأسها الاعتداء على منشآت عامة بغرض تخريبها، والاعتداء على موظف عمومي أثناء تأدية عمله، وسرقة مال عام وبيعه في السوق السوداء، والغريب أن شهوداً من أهل البلد قد شهدوا عليهم بذلك، واستمرت القضية عاماً في قاعات

المحاكم، ما بين سجال وجدال بين المحامين، والأولاد محبسون في السجن، أما عوض فما زال يمارس عمله على رأس الكوبانية التي لم يعد يُباع فيها أي جاز على البطاقة، فعربة الجاز رغم أنها كانت تأتي في كل شهر، لكنها أصبحت تُسرق وتأتي فارغة، والعمدة ما زال يأمر شيخ الخفر بمنتهى الرقة

"ابقى امسك الحرامية"

وفي نفس اليوم الذي كُسرت فيه ماسورة الحنفية، احتفل عوض مع العمدة وشيخ الخفر، وفي مقر الكوبانية، بذكري مرور عام على القبض على من كسروا ماسورة الحنفية، بعد أن حاولوا سرقة الجاز من الكوبانية، مؤكدين للناس أن هؤلاء ورغم أنهم في السجن، فإن كثيراً من الحرامية ما زالوا خارج السجن، ويهاجمون عربة الجاز ليسرقوا الجاز قبل وصوله للكوبانية، وجاري البحث عنهم وتسليمهم للمركز، حتى يُحاكموا مثل الآخرين .

ومع الاحتفال بالذكرى السنوية لكسر ماسورة الحنفية، خرجت أصوات من أهل البلد تعيب على هؤلاء الأولاد الصغار، وتحديدهم لعوض والعمدة وشيخ الخفر، وكسرههم للماسورة وكشفهم لعطل الحنفية، فعلى الأقل كانوا ينالون جزءاً ولو قليلاً من الجاز، أما الآن فلم يعد ينبغي شيء من الكوبانية، إلا تكاثر الحرامية!!

وحُجزت القضية للنطق بالحكم، وقبل أن ينطق القاضي
بحكمه، هتف الشباب في قفص الاتهام
"السرقه لسه هيا هيا، يا تصلحوا الحنفية، يا تمسكوا
الحرامية!!"

تمت ..

(12)
في انتظار كتابة المحضر *

* في مارس ٢٠١٢

الطريق أمام السيارات .

ورقص الجميع على أنغام النصر، وانهمكوا في تهنئة بعضهم البعض على ما أبلوا في تلك المهمة من بلاءٍ حسن كان محط إعجاب من الجميع، وبدا الأمر كأنه معجزة ربما لن تتكرر كثيراً، إذ من النادر جداً أن يتجمع الناس من أهل تلك البلد على قلب رجل واحد لإنجاز أي شيء، فلم يذكر لهم التاريخ ذلك التجمع إلا في مرات معدودات، كانوا فيها محل إعجاب وانبهار بل وحسد من كثير من البلدان المجاورة، لما يفعلونه بتجمعهم هذا من معجزات لا يصدقها عقل .

ثم عاد كل راكب إلى ميكروباصه، وبدأ يحكي للجميع عن صولاته وجولاته في ملحمة رفع الجذع، وكيف أنه ومن دون همته، ما كان لهذا الجذع أن يُرفع إلى يوم القيامة، ثم بدأت تتعدد الروايات من كل منهم، وشب الخلاف فيما بين الرواة، عن هذا الذي كان له الدور الأكبر في رفع الجذع، وفي خضم كل تلك النقاشات بل والشجار كذلك، تاه السبب الحقيقي في سبب سقوط الجذع وقطعه للطريق، وما إذا كان مجرد صدفة من فعل الرياح القوية، أم أن أحداً قد قام بقطع الجذع وإلقائه لهم في الطريق حتى يقطعه عليهم، خصوصاً أن أحداً منهم لم يشغل باله ويكلف خاطره، ويذهب ويعاين مكان الجذع، وما إذا كان هناك أثر لقطعه بواسطة يد خفية أرادت سوءاً بهم، وما زالت تلك اليد مخفية تترصد لهم!!

تطاير خبر إزالة الجذع من الطريق، مثل تطاير "السيرتو" من زجاجة منسية مفتوحة، وصار الخبر هو الحكاية المروية الأهم على لسان القاصي والداني، بفضل ألسنة

سائقي الميكروباص والتبايعين في موقف المدينة، وصار كل سائق يدّعي بأن ركاب ميكروباصه الأشداء، تحت إشرافه وقيادته هو بالطبع، هم من كانوا لهم اليد العليا في رفع الجذع اللعين، بعد أن ظنه الناس باقيا في مكانه، وإلى الأبد!!

وكعادة سائقي الميكروباص، يبدعون جلساتهم بالهزار وإلقاء النكات والقفشات، بل والتراشق بالألفاظ على بعضهم البعض، وهم يشربون الشاي ويدخنون المعسل خلال فترات انتظار دورهم في التحميل، فأحد السائقين ويدّعي "أبو العزم" يدّعي بأنه لم ير زميله "سمعة" أثناء رفع الجذع، بل إنه قد حلف بالطلاق من "جماعته" الجديدة، بأن عجل ميكروباص "سمعة" لم يكن أساسا على الخط في ذلك اليوم، وأنه هو فقط من كان صاحب العزم الحقيقي في عملية رفع الجذع!!

وهنا رد عليه "سمعة" بمنتهى الحزم، بأنه هو الذي يدعي البطولة، وأن بسلامته "أبو العزم" ساعة رفع الجذع، كان مشرفًا كالعادة في "الغرزة" التي في ظهر الموقف، ليشرّب في "الاصطباحة" ويعمل "دماغ"، ويشهد على ذلك "حسونة" صاحب نصبة الشاي.

فرد عليه "أبو العزم" مستنكرًا وقال:

"على الأقل أنا كنت في الموقف، وليس مثل بعضهم كان ينام في تلك الساعة في حضن الجماعة"

فاستشاط "سمعة" غضبًا وهب لكي يتشاجر مع "أبو العزم"، على اعتبار أنه قد خاض في حرمة وأعراض بيته، وكلمة من هذا وكلمة من ذاك، انقلب الهزار إلى خناقة لرب السماء، وهب جميع السائقين لفض هذا الاشتباك بين "سمعة"

و"أبو العزم"، اللذين لا يفوتهما أي واجب مع أي سائق في الموقف، خصوصاً في مسألة الخناقات، سواءً على الطريق أو على أبواب الموقف، أو حتى في داخل قسم شرطة الموقف، وفتحت المطاوي من الجميع في الخناقة على سبيل المجاملة، وسالت دماء كل من "سمعة" و"أبو العزم" وبعض من تدخل "ليحجز" بينهما، كذلك على طريق المجاملة، حتى انتهى الموضوع برمته على مكتب الصول "عفيفي"، القائم بأعمال الضابط "النوبتجي"، في نقطة شرطة الموقف.

وبسبب هذه الخناقة، توقف الموقف تماماً عن استقبال وتوصيل الركاب، وتزايد تراكم الركاب داخل الموقف حتى أغلقوا كل الطرق المؤدية إليه، ولم يعرف أحد من الركاب بالضبط سبباً لهذا التجمع حول نقطة الشرطة، وصار السؤال الملح من الجميع

"هوا في إيه؟!!"

لكن أحداً لم يسمع إلا طرطشة كلام من البعض، بأن الموضوع كان مجرد "هزار" ثقيل بين اثنين من سائقي الميكروباص "هزار سائقين"، ثم انقلب الهزار إلى جد ودخل في الأعراض .

لم يكن الصول "عفيفي" مهتماً بفض الخلاف بين المتخاصمين، بقدر ما كان يريد الظهور بمظهر المسيطر على كل الأمور في الموقف، وصاحب الكلمة العليا فيه، فشمّر يديه وشرع في كتابة محضر محترم، وأفرغ فيه خبرة ثلاثين عاماً في تدبيج المحاضر، خبرة يعجز عنها أي ضابط بدبابير ونسر، ولكن "سبع صنایع والبخت العفيفي في الميري ضایع"، وأنهى

"عفيفي" المحضر الذي حرص فيه على إداة الطرفين، كما حرص كذلك على التسخين بين "أبو العزم" و"سمعة"، حتى يضمن أن تستمر الخناقة بينهما مشتعلة!!

وأخيراً وبعد طول انتظار، وإصرار من الركاب على دخول نقطة الشرطة، لمطالبة الصول "عفيفي"، بأن يمارس سلطته ويأمر السائقين بسرعة عودة الميكروباصات لتحميل الركاب، وهم يتساءلون عن وظيفة أو فائدة نقطة شرطة الموقوف، إذا لم تعمل على ضبط الأمن، وأن تضبط كذلك من يُعطل مصالح الناس، حتى اضطر الصول "عفيفي" أخيراً، إلى ممارسة عمله وركن محضر "سمعة" و"أبو العزم" على جنب لبعض الوقت، وأمر العساكر بأن يعيدوا السائقين لميكروباصاتهم، وعادت الحركة للموقف بعد ساعات من توقفها.

وصل أول ميكروباص إلى مكان جذع الشجرة، الذي لم يكن على جانب الطريق كما تركه الشباب صباحاً، بل كان يقطع الطريق، وبالعرض، ويبدو أن مجموعة ما قد أعادت الجذع ليقطع الطريق مرة أخرى، ولكن في هذه المرة لم يتقدم أحد من الركاب حتى يرفع الجذع، ليفتح الطريق الذي تعطل مرة أخرى

حتى اتصل أحد الركاب من تليفونه المحمول بنقطة شرطة الموقوف، ولكن الرقم لم يكن يرد، فقد كان العساكر منهمكين في فض خناقة جديدة نشبت بين السائقين والركاب، أما الصول عفيفي فقد فرغ نفسه تماماً لاستكمال كتابة المحضر الخاص بخناقة "سمعة" و"أبو العزم"، وما زال الطريق

مقطوعا، حتى الآن، في انتظار انتهاء كتابة المحضر!!

تمت

(13)
الغرياء *

* في سبتمبر ٢٠١٢

"لو أني أعرف خاتمتي ما كنت بدأت..."

هكذا ظل صوت عبد الحليم حافظ يردد كلمات هذه الأغنية، حتى ضج منها أهل المنطقة، وضجوا كذلك من "نصر" الخفير، الذي يحرس إحدى العمارات التي تحت الإنشاء، والذي يعيد ويزيد في الأغنية، وبلا ملل، من جهاز "الكاسيت" الكبير المتهاك ذي السماعات الدائرية بنظام "أوتوريفرس"، والذي يفخر به نصر كثيراً، ويردد دوماً على كل من يتندر عليه وعلى ضخامة كاسيته وضخامة سماعاته، تلك العبارة المكررة والتي ملها الناس منه كذلك بأن "دا كاسيت ياباني أصلي وبتاع بلده"

أحضر نصر معه هذا الكاسيت من السعودية، عندما كان يعمل هناك لمدة خمس سنوات متصلة، لم يستطع فيها أن يأخذ إجازة واحدة توحد ربنا، حتى استغنوا هم عن خدماته، لكنه أبداً لم يستغن عن خدمات الكاسيت، الذي ظل يرافقه ويذكره بأيام العز، والتي ابتلعها الماضي فيما ابتلع منذ أكثر من عشرين عاماً، ولم يبق له منها إلا صوت هذا الكاسيت بشريطه الأصلي، الذي أخذه مع الكاسيت من البائع هدية، فوق البيعة، ولم يشتر من بعدها أي شريط أصلي ولا حتى تقليد .

ورغم مرور كل تلك السنوات، لكن الشريط لم يتلف، مع أنه يديره كل يوم ليسمع نفس الأغنية، حتى ظنه الناس قد اشترى الكاسيت والشريط بداخله، ولم يتعلم حتى الآن كيف يغيره بشريط آخر، ولكن كل هذا لم يكن يهم نصر، ويتعمد أن يطرب ويهيم مع كلمات الأغنية في ملكوت الخيال، رغم أن كلماتها باللغة العربية الفصحى، التي لا يفهم نصر معظمها،

لأنه رجل أُمي لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه كان يردد ويفهم
معنى هذه الكلمات جيداً!!

ونصر الذي لم تترك له التجاعيد والمنحنيات أي نضارة
على وجهه، لترسم عليه كل أفاعيل الزمن وقسوته، وتولي
عنه أيام النعيم بعد أن خسرت معركتها الأخيرة، فترك نفسه
أسيراً للطفو فوق أمواج الحياة، لتحمله حيثما شاءت وكيفما
أرادت، وهو قانع بنصيبه القليل من على هامشها .

وحتى لو كان أهل المنطقة التي يعمل فيها، وقيم أيضاً،
لا يرون فيه إلا مجرد مصدر إزعاج لهم، بل إن بعضهم كان
يعتبر الخلاص منه هو غاية الأمان، حتى يعود الهدوء مرة
أخرى للمكان، والذي افتقده منذ أن بدعوا في بناء تلك العمارة
السكنية الجديدة، وأحضروا نصر ليكون حارساً للبناء فقط فقد
كلفه مقاولها بحراسة الطوب والزلط والرمل، لكن نصر قد
وضع نفسه تحت تصرف كل أهل المنطقة، يطلبونه فيجدونه
تحت الأمر والطلب، ليحمل في أشياء وينظف في محلات
ويغسل في سيارات، فقد كان يكفي أي طالب له أن ينادي من
بعيد ويقول

"يا نصر"

فتنشق الأرض عن نصر، ليقف أمام مناديه وهو يقول

له

"أي خدمة يا باشا"

لم يكن نصر يريد أن يُغضب أحداً منه، هكذا قد تعلم في
بلاد الغربية في السعودية، كان يفعل أي شيء لكي يرضى عنه
الناس، طالما أن ذلك سوف يجعله يكسب مالاً حلالاً في النهاية،

كانت له في الحياة نظرة عصرتها التجارب، فمثله ممن لم يحصلوا على أي شهادة، إلا شهادة التجنيد بعد ثلاث سنوات من الخدمة بلا ثمن، لم يجدوا شيئاً لكي يتحججوا به ليرقوا من أنفسهم، ولم يتعلموا كذلك أي حرفة يبحث الناس عنهم من أجلها، فيصبح كل رصيدهم في الحياة هو الكلام، والذي كان نصر يختار للناس أحلاه، ويتجنب حتى مع أقسى الناس أقساه .

مرت سنوات الغربة على نصر كما طيف سريع، حتى اضطره للعودة بلا أي تعويض، أو حتى شكر، فعاد ثانية لهذا المكان الذي كاد قديماً أن يموت فيه، لم يكن مسقطاً لرأسه ولا ملعباً لصباه، لكنه كان يحبه ويتعلق به أكثر من أي مكان، فهو قطعة غالية من أرض الوطن، سألت من أجل عودتها كثير من الدماء، تذكر رفاق السلاح وليالي الخوف والرجاء التي عاشها تحت طلقات الرصاص ودوي القنابل، أين من بقي منهم الآن؟! كان قد حمل معظمهم لمثواه الأخير، ثم حمل أماله من بعد النصر ليضعها بين أحضان الدولار والريال، بعد أن رجع لقريته بعد الحرب فلم يجد أحلامه التي كانت تسكن فيها، فقد بارت الأراضي وانفض عنها الناس، ورحل العرق الذي كانت تُروى به الأرض السوداء، ليملاً بحوراً لا تروي ظمأ الرمال التي لا تشبع في الصحراء!!

بدأ الجوع يبحث عن بطنه، بعد أن عادت متخمة، فالجوع أسرع وصولاً للبطون من الشبع، ولا تبتلع البطون الطين دون العرق الساكن فيه، أما البيت الذي بناه بالأسمنت والحديد فقد ابتلع الأرض التي كانت تكفيه وتشبعه إلى الأبد، وصار عليه الآن أن يعمل لكي يستطيع الحياة، فحرس

العمارات والمشاريع ولكن بعيداً عن بلدته، ينبغي ألا يراه أحد بعد أن تنازل عن بهرجة الغربية الزائفة، حتى ولو حمل معه الكاسيت والمروحة لكل مشروع يتسلم فيه الحراسة، ويحمل معه كذلك عيونه التي تُغمض عند اللزوم، وأذنيه اللتين تسمعان الإساءة وتسكت!!

كانوا صبية صغاراً، أو هكذا كان يراهم وهم يتجمعون ويثرثرون ثم يتندرون عليه، ويضحك لهم وهو يدخن الجوزة، فيتصاعد الدخان في ظلام الليل، ليغطي على أدخنة أخرى تتصاعد منهم كذلك خلف العمارة، أدخنة زرقاء تُداري أفعالاً أخرى مشينة، لم يكن نصر يدري عنها شيئاً، أو ربما كان يدري ولا يهتم، فقد اعتاد على الحياة غريباً في بلاد غريبة، وقد تعلم جيداً كيف لا يتدخل فيما لا يعنيه، حتى لا يلقي ما لا يرضيه!!

ضح سكان المنطقة من نصر، ومما يغض الطرف عنه في كل ليلة، فقد تعددت السرقات وحوادث الاعتداء على البنات، بل إن أحد الصبية قد وُجد مقتولاً في إحدى الخرابات، وصار حمل المطاوي وإشهار السيوف حدثاً عادياً، قد وجدها بعض الأهالي في جيوب أبنانهم، فصار الجميع يسبون في نصر وأمثاله، من أولئك الغرباء الذين استوطنوا في المدينة، بعد أن انشغل أهلها في التجارة والرياح، وكان نصر كثيراً ما يقول لنفسه

"لولا دماء زملائي وعريقي أنا ما اغتنى هؤلاء"

لكنه لم يكن ليعلن ذلك أبداً، عليه أن يُوقن بأنها أرزاق وقد قسمها الله، ولولا أنهم تركوا الكد والتعب وركنوا إلى

الراحة والرزق السريع في التجارة، ما وجد هو وأمثاله رزقاً يطعمون به أولادهم، هكذا كان يقول كذلك في الغربية خارج الوطن، حتى عاد ليجد نفسه غريباً كذلك في وطنه!!

نادى عليه أحد الأشخاص في الصباح كالعادة، فاندفع نصر ليلبي الطلب، كان المنادي ضابطاً من سكان المنطقة، لم يكن يريد شيئاً منه كما توقع، لكنه قد أنذره بمغادرة المنطقة كلها، ليس هو فقط ولكن عليه أن يصطحب معه كذلك كل المجرمين والبلطجية الذين سكنوها على يديه، لم يستطع نصر الرد عليه، ولم يكن يعرف كذلك من هم هؤلاء البلطجية؟!، كل ما كان يفكر فيه هو ماذا سيفعل بعد أن يغادر، هل المعرفة هي الثمن لبقائه؟! بعد أن أضحي التذلل لا يعصم من الرحيل!!، لكن كل ما كان يعرفه أن الحكومة هي التي يجب أن تعرف كل شيء!!

غاب نصر تماماً عن المكان، وتنفس الجميع الصعداء بغيابه، فحتماً سوف تغيب الجريمة والبلطجة إلى غير رجعة، وفي خضم الفرح برحيله والتأسف على فقدان خدماته، ظهرت جثة جديدة، وجدوها ملقاة في إحدى الخرابات، وذهب الضابط ليعاين المكان، كانت الجثة المقتولة لرجل في الستين من العمر، تبدو التجاعيد القاسية واضحة على وجهه، دقق فيها الضابط كثيراً، فاكتشف أن المقتول هو نصر نفسه، ففُيد الحادث ضد مجهول، هؤلاء البلطجية ليس لهم في عرف الحكومة ثمن!!

عاد جسد "نصر" إلى قريته القديمة في صندوق، عاد غريباً ليرقد هادئاً مهزوماً تحت التراب، وعاد الضابط لبيته ليرقد مجهداً، لم يلتفت لزوجته التي أخبرته بأنها قد وجدت

مطواة في ملابس ابنهما المراهق، قال لها بأن كل شيء سينتهي برحيل نصر وأمثاله من المجرمين الذين سكنوا تلك المنطقة الراقية الهادئة، فحولوها مرتعًا للجريمة في كل يوم، ثم دخل لينام مرتاحًا تحت البطانية، حتى أيقظه في الصباح صوت كاسيت صيني مقلد، كان الصوت يصرخ عاليًا لأقصى حد، وهو يتحشرج بأغنية منتشرة في تلك الأيام تقول

"أنا شارب سيجارة بني، علشان دماغي بتاكلني"

كان الصوت ينطلق هذه المرة من غرفة نوم ابن حضرة الضابط، فتأفف الضابط لذلك الصباح المزعج، ولعن أولئك الغرباء الذين علموا أولادهم الصغار تلك الأشياء القبيحة، ثم حمد الله أن الأمر قد توقف عند ذلك الحد، ثم عاود دفن رأسه تحت البطانية!!

تمت

(14)
فلتاؤوس أفندي *

* في مارس ٢٠١٢

كرشه الكبير كان يسبق خطواته، إلى حيث المائدة التي تنتظره، لكي يلتهم لفة السمك المشوي الذي يحمله في الكيس، وقد تسللت رائحته "زفارتة" إلى "نخاشيش" أنف جنابي دون استئذان، والذي سيأكله مع ربطة الجرجير "الوراور" مع صف العيش البلدي "القابب"، الذي خبزه له الفرن مخصوصاً، وانتقاه هو بالرغيف ليضعه بين أوراق "جرنان" الأهرام، ليحتضنه بيده اليسرى بجوار القلب تماماً، ومع ذلك لم يفوت الفرصة، وكبس على نخاشيشي أنا، ربما لأنها شمت السمك أولاً، والأهم لأنه كان يراني للمرة الأولى، فبدأ يطرح علي أسئلته المتواليّة، عني وعن سبب وجودي في ذلك المكان!!

كانت هذه هي أول معرفتي بـ "فلتأووس أفندي"، مع اليوم الأول لسكني في تلك العمارة، حيث استلمني جنابه مع أول درجات السلم الطويل، لتبدأ معه رحلتي الشاقة الأولى حتى أبلغ الدور الخامس، حيث يسكن هو، وأكمل أنا للدور السادس الذي تقع فيه شقة الطلبة الوحيدة في تلك العمارة السكنية، التي تمتلئ بالسكان الأرائب الخانفين جداً، من نوعية الطلبة الذناب من أمثالنا، رغم أن لديهم أولاداً ذناباً كذلك، ولكن ذنبيتهم هذه لا تظهر غالباً، إلا خارج العمارة!!

وفلتأووس أفندي، الذي لم يكن هذا هو اسمه الحقيقي طبعاً، إنما كان هذا هو الاسم الذي أطلقناه عليه نحن الطلبة، بسبب تصديه لتحصيل النقود الخاصة بصيانة العقار، كما كان يفعل فلتأووس أفندي الحقيقي في الفيلم الشهير "معلش يا زهر"، خصوصاً أن العقار لم يكن له صاحب، فهو من الإسكان التعاوني في بلد يعتبر التعاون فيه هو آخر ما يلجأ إليه

المواطنون لحل مشاكلهم اليومية!!

ثم ما لبث أن انتشر الاسم بين سكان العمارة، بسرعة انتشار النيران التي تسببها أعقاب السجائر، التي كان يلقيها زميلنا المدخن الشره "خليل"، ولم يكن يهتم أبدا بإطفائها قبل أن يلقيها، فتستقر مشتعلة في أكوام القمامة المتراكمة في الخرابة المجاورة للعمارة، فتشتعل فيها الحرائق وتخلصنا منها ومن رائحتها، حتى سميناه خليل "حريقة"، وكدنا أن ننسى اسمه الحقيقي كذلك، خصوصا أننا كنا نلحق حرائقه المتعددة بجرادل المياه ليئا، على آخر لحظة، وقبل أن تحدث كارثة، والكارثة هي أن يصحو فلتاؤوس أفندي، الذي كان يسمع طشات الجرادل على النار فيخرج في البلكونة ليسب ويلعن في هذا الجيل وأبنائه، وما ستليه من أجيال لا يعلم بها إلا المولى عز وجل .

وكما تعهدني فلتاؤوس أفندي، من الدرجة الأولى للسلم وحتى الدور الخامس حيث يسكن، تعهدته أنا كذلك بنظراتي المتفحصة أثناء ردودي المقتضبة على أسئلته الكثيرة، وكدت أن أعلنها في وجهه صراحة

"إنت فاكّر نفسك شيخ الغفر ولّا ناظر المدرسة"

ولكني تراجعت أكثر من مرة، فقد خشيت أن يكون حضرته، شيخ خفر فعلا لدى حبايبنا الحلوين من مخبري أمن الدولة، والذين نذكرهم دائما بالخير، خصوصا بعد الذي فعلوه في شقة الطلبة في الشارع الذي وراونا، وتطايرت أخباره في عموم الشقق الطلابية .

فالتاؤوس أفندي من نوعية الرجال الذين يُصدرون

أنفسهم في كل شيء، ولا تمل أنفه الضخمة من أن تدس
أرنبها في كل موضوع، لإشباع رغباته المكبوتة في الزعامة،
خصوصاً أنه قد أحيل حديثاً على المعاش، وترك كل هيلماته
الوظيفي، وقد تأكدت من ذلك عندما طالعت "اليافطة" النحاسية
الكبيرة التي وضعها على باب شفته، وتحت اسمه المكتوب
عليها بحروف بارزة وكبيرة عبارة
"مدير بالتربية والتعليم"

وتحتها وبخط صغير جداً وبين قوسين كتب
"سابقاً"

ورغم أن مجهولين كانوا يُصرون أن يكتبوا له على
اليافطة، فلتاؤوس أفندي بالطباشير، فإنه كان يحرص أيضاً
على مسحها في كل صباح، وهو يُضمر في نفسه حقداً دفيناً،
على أولئك الملاعين الذين يسكنون في شقة الطلبة التي ابثليت
بها العمارة في الدور السادس، أولئك الذئاب المجرمون الذين
حشروهم بين السكان، وهذا ليس إلا انتقام الله منهم ومن أفعال
بناتهم ناقصات التربية، التي لا يعلمها إلا ربنا ثم فلتاؤوس
أفندي وبالتفصيل، وما أكثر الحكاوي التي كان يسمعها في
المقهى المواجه للعمارة مباشرة، والذي يقضي فيه معظم
أوقاته وهو يطالع في صفحة الوفيات في الأهرام بعين، بينما
العين الأخرى تتابع وبمنتهى الاهتمام كل بنت أو سيدة عازبة
أو متزوجة تخرج من العمارة، ويتفحص فيها وفي حمار
خودها الأشبه بالخوخ العرايشي، ولا ينسى أن يحصي بالضبط
عدد الخوخ الذي على الخود، من خلف نظارته كعب الكباية .
إلا أننا كنا والله وحده يعلم، براء من تلك النهمة براءة

الذنب من دم سيدنا يوسف، ولكننا كنا ذنابًا على كل حال في نظر فلتاؤوس أفندي، ولهذا اعتاد أن يضعنا دومًا في مواضع الاتهام مع كل جريمة تحدث معه، أو مع غيره، من ظنه السيئ فينا، ورغم أنه ظل يحيك في مؤامراته الخبيثة لبيل من حولنا، حتى يطردها من العمارة شر طردة، ويرتاح هو من قبل الجميع، لكن كل مؤامراته كانت تبوء بالفشل دائمًا، لكراهية السكان له هو شخصيًا، نظرًا لتدخله الدائم فيما لا يعنيه .

ورغم كل تلك المشاعر من الكراهية حول فلتاؤوس أفندي، فإنه كان يقوم بواجباته تجاه العمارة على أكمل وجه، من دفعه لفاتورة المياه المشتركة بين كل الشقق، ثم يتكفل بتحصيلها بعد ذلك، مع صراخه الدائم من ازدياد الاستهلاك، وجلبه لعامل يمسح ويغسل السلم بعد رفع القمامة المتراكمة عليه، وتغيير لمبات السلم ومدخل العمارة المحروقة، وتفصيل قفص حديد لحماية موتور المياه من السرقة المتكررة، وكذا مسح المياه المتجمعة في مدخل العمارة المنخفض عن الشارع، والذي كان يتحول لبركة مياه رمادية، في أيام الشتاء الممطرة، إلا أن أحدًا لم يكن يطبق طلعة جنابه، وهو يدق جرس باب كل شقة مطالبًا بدفع نصيبها في الصيانة .

ظل فلتاؤوس أفندي ينعص علينا عيشتنا طوال العام الدراسي، حتى ظننا أن جنابه مقرر علينا مثل باقي مقررات الدراسة، وأن طلته البهية علينا في أول كل شهر هو الاختبار الواجب تأديته لضمان أعمال السنة، وأنه آت حتمًا لنا كسؤال إجباري في أي مادة غلسة، حتى انتهى العام الدراسي بسلامة الله، ونجحنا جميعًا والله الحمد في كل المواد، عدا مادة واحدة

هي شرط النجاح التام وهي مادة فلتاؤوس أفندي، التي رسبنا فيها جميعاً!!!

ورجع كل منا إلى بلدته وأهله، حتى عاد العام الدراسي الجديد، فعدنا جميعاً وسكنا في نفس الشقة لقربها من الكلية، ورغم كرهنا لسحنة فلتاؤوس أفندي التي ستعود لتطل علينا مرة أخرى، لكن ميزة الذهاب إلى الكلية سيراً على الأقدام، من دون أن ندفع ربع جنيه أجره للميكروباص، في الذهاب وكذلك في العودة، كانت تعطي بكثير على غلاسة فلتاؤوس "بك" المدير السابق بالتربية والتعليم!!!

إلا أن دخولنا للعمارة في أول يوم دراسي، كان له انطباع آخر، ولم يكن أبداً مثل السنة الماضية، فلم تكن العمارة على حالها السابق، فالسلم كان مليئاً بأكياس متراكمة من القمامة، ودرج السلم كان في قمة القذارة، وأدوار كثيرة من بسطات السلم ظلت لمباتها محروقة، ولا نكاد نرى خطواتنا على السلم المظلم، فتعجبنا جميعاً، لكننا لم نسأل عن السبب، فقد كان واضحاً للعيان، وعلى يافطة شقة فلتاؤوس أفندي، التي كانت نظيفة تماماً ونحاسها يلمع، ومن دون أي أثر للطباشير، فلم يكتب أي أحد كلمة "فلتاؤوس أفندي" على اليافطة تحت اسمه، الذي ازداد لمعاً بعد أن أصبح مسبوفاً بلقب "المرحوم"!!!

تمت

(15)
صراع الربع والتلاتربع *

* في يوليو ٢٠١٢

عادت الأمور أخيراً إلى ما كانت عليه، وعادت شونة الغلال الواسعة في البلد إلى العمل، وظهر المعلم "عسكر" مرة أخرى بجوار الرئيس "شعبان"، بعد أن كان الوضع غريباً فعلاً، فالريس شعبان برغم ضخامته وطول قامته الواضح، ظل يتوهم أنه لن يقوى أبداً، إلا بدعم من المعلم عسكر، الذي كان قوياً بالفعل، بالرغم من قصره الواضح واقترابه من الأرض، ولهذا سماهما أهل البلد "الربع" و"التلاتربع"، فكل منهما لا يستغني عن الآخر، فهسكر (الربع) لن يكون له وجود أبداً إلا بوقوف شعبان (التلاتربع) بجانبه، وشعبان (التلاتربع) لا ينصلح حاله أبداً إلا ببقاء عسكر (الربع) قوياً، وكأنهما يكملان بعضهما ليكونا كياناً واحداً صحيحاً، كيان لا يعني تقسيمه في أي بلد، إلا أن تنساب معه بحورّ من الدماء!!

ظل المعلم الربع وتدّاً قوياً، لا يقتلعه أحد ولا يغلبه غلاب، رغم أنه لم يكن يستخدم قوته هذه إلا عند الضرورة القصوى، فقد كانت لديه ميزة أخرى كان يلجأ إليها للسيطرة على الشونة الكبيرة المترامية الأطراف، والتي لم تكن تتهدد باللصوص من الغرباء فقط، بل ومن داخل الشونة ذاتها، بالإضافة لأسراب العصافير والغربان التي تخطف وتجري، إلا أن الربع ظل يحرص على ألا يستخدم عضلاته البارزة أبداً، لكي يقف في وجه كل هؤلاء، فقد كان يكفيه دهاؤه وعقله الراجح، فيتوهم كل هؤلاء بأنه مستيقظ ليلاً ونهاراً، وكانت صيحة واحدة منه في أول النهار تكفي لترهب كل الطيور، وصرخة واحدة منه في منتصف الليل، تكفي ليفزع من هولها كل اللصوص، أما الباقي فيتركه للتلاتربع، بعد أن يختفي في

عرفته الحصينة الكائنة على باب الشونة .

أما التلاتربع الذي يملأ العين عندما تراه من بعيد، فقد كان طويلاً وعريضاً وممتلئ الجسم، إلا أنه لم يكن يشعر بقوته هذه أبداً، وكان دائماً ما يُطأطئ رأسه أمام كل وافد للشونة، ورغم أن الربع قد ترك له مهمة التعامل مع الوافدين إلى الشونة، ويتسلم كل أجولة الغلة من الفلاحين، ثم يقوم بتسليمها بعد ذلك للتجار، فإن التلاتربع لم يكن يقبض نقوداً من أي تاجر، ظلت مهمته فقط هي مجرد التسلم والتسليم، ثم البصم على الأوراق، أما الحساب فهو عائد دوماً إلى غرفة الربع، ويحرص على إغلاقها دائماً في تلك الساعة بالذات، بعد أن ينادي على التلاتربع ويسأله إن كانت الكميات سليمة وعلى ضمانته أم لا؟!

ورغم أن التلاتربع كان ينهد حيله في حمل الأجولة من الفلاحين إلى داخل الشونة، ثم يعود ويحملها مرة أخرى إلى التجار المنتظرين في خارجها، وإذا سقط مريضاً تتوقف كل حركة البيع والشراء، فإن الربع لم يكلف خاطره في يوم من الأيام، ويقوم بزيارة التلاتربع المريض الراقد خلف الأجولة، حتى إنه عندما كان يرجع ليستأنف عمله، كان الربع يكلفه باستكمال ما تأخر عليه من عمل خلال فترة رقدته في مرضه!! وحتى عندما قام التلاتربع مقام الربع وحمى الشونة عندما رقد الربع منتكساً على فراش المرض منذ عدة سنوات، لكن الربع لم يذكر له ذلك الجميل في أي وقت، خصوصاً أن التلاتربع لم يكن يشتهي أبداً من هذا الوضع، مما جعل الربع يتمادي في عشمه مع التلاتربع، وكثيراً ما كان يقسو عليه، ولا

يلقي له أي بال أو اعتبار أمام زائري الشونة!!

بدأت مكاسب الشونة تقل كثيراً، والجميع يتساءل عن السبب في ذلك، وعمّا إذا كان اللصوص قد وجدوا طرقاً جديدة لسرقة أجولة الغلة ولم يستطع أن يكشفها الربيع بكل دهانه، أم أن التلاتربع نفسه كان يبيع منها لحسابه الخاص، فبدأ الاثنان في تبادل الاتهامات أمام الناس، وبعد أن كان الناس يعتبرانها يداً واحدة، إذا بهما قد صارا بسبب المصلحة كل في طريق، حتى صارت المواجهة محتومة بين الطرفين .

وفي لحظة فارقة ثار التلاتربع، بعد أن أضناه كثرة اتهام الربيع له بالإهمال، فطرح الجوال الذي كان على ظهره أرضاً، والتفت ناحية الربيع وشرر الغضب ينطائر من عينيه، وبدت قامته مستقيمة للمرة الأولى على غير العادة، واتضح الفرق الكبير في الطول بينهما، وحتى عندما ضربه الربيع بالعصا على ساقه الطويلة، تقدم التلاتربع نحوه متأهباً لرد الضربة له على رأسه، فتراجع الربيع للخلف واعترف بأنه كان مخطئاً في حقه، وأعلن بأن هناك طرفاً ثالثاً ظل يسرقهما سوياً!!

انقلبت الأمور في الشونة رأساً على عقب، بعد المواجهة الكبيرة بين الربيع والتلاتربع، وتوقفت حركة البيع والشراء تماماً، وتأزم الأمر لفترة طويلة، فعادت اللصوص والغربان فساداً في الشونة، حتى صار حتماً على الجميع التدخل للوساطة، ليتم حل هذا الموقف الصعب قبل أن يخسر الطرفان، فرغم تكرار هذا الموقف من قبل في شونات أخرى في بلدان مجاورة، فإن شونة هذه البلد هي الأكبر والأخطر بين كل البلدان، وتوقفها لا يعني إلا خراباً، ولا يعلم مداه إلا الله .

عاد الربع والتلاتربع مرة أخرى، وظهرها سويًا في الصورة، وتعاهدا على نسيان الماضي، بدا الربع وكأنه قد تنازل عن قيادة الشونة للتلاتربع، فلا الربع كان يقدر برغم قوته ودهانه على أن يقهر التلاتربع، الذي أدرك أخيرًا أنه كان قويًا ولا يدري، وأن قامته ظلت منحنية أكثر مما ينبغي، فتعالى عليه الربع رغم قصر قامته الملحوظ، وصار يعلو ويعلو عليه، رغم أنه لا يكتمل طولًا إلا به، لكن الاثنين قد اتفقا أخيرًا على القبول بالأمر الواقع، أو على الأقل في تلك المرحلة، كي يواجهها سويًا اللصوص والغربان الذين تكاثروا على الشونة، لينهبوها بلا رابط في ظل انشغال الربع والتلاتربع بالصراع المصيري بينهما .

كان ثمن انتقال القيادة للتلاتربع هو بقاء الحسابات في يد الربع، ورغم موافقة التلاتربع بتلك القسمة على مضض، لكن ظل الربع يفكر ويخطط، لكي يسيطر مرة أخرى على الشونة وعلى التلاتربع، بعد أن أيقن أنه قد أدرك قوته الحقيقية، التي لم يكن يشعر بها، تلك القوة التي يجب أن يستغلها الربع فقط في حمل التلاتربع لأجولة الغلة، أما الحسابات والقيادة فهذا ما لا يجب أن يعرفه أبدًا، حتى إن البعض قد سمع الربع خلسة وهو يقول لبعض جلسائه، بأنه حتمًا عائد لقيادة الشونة، وأن التلاتربع عائد ثانية لحمل أجولة الغلة فقط، ولا يجب أن يفكر في أي شيء آخر قد تسوله له نفسه، تلك التي جعلته يتناول ذات مرة على أسياده!!

تمت

(16)
ثورة جمل عرفات *

* في مارس ٢٠١١

لم يكن عرفات شخصاً عادياً في البلد، بدايةً من اسمه "عرفات"، والذي أطلقه عليه أطفال البلد منذ زمن بعيد، فقد كان اسمه الحقيقي هو "إسماعيل"، إلا أن أحدًا لم يكن يناديه بهذا الاسم أبدًا، وعلى عكس كل عجائز البلد، ظل عرفات يتميز بسواد شعره الواضح، رغم أنه قد تعدى السبعين من العمر، بل إن البعض كان يؤكد بأنه قد تخطى الثمانين، نظرًا لأنه لم يسجل في سجلات المواليد، وكان كما يقولون عليه "ساقط قيد"

إلا أن عرفات ظل شخصاً مهابًا من كل أهل البلد، حتى من أولئك الذين يكرهونه منهم، لأنه كان يمتلك ويقود الشيء الوحيد الذي لم يكن يجرؤ على قيادته أي من أهل هذه البلد، وربما في البلدان المجاورة لها أيضًا، فمن الطبيعي أن يمتلك أحد الفلاحين من أهل البلد حمارًا أو بغلاً، أو حتى حصانًا، ويقوده بنفسه في مشاويره الخاصة، إلا أن عم عرفات وحده الذي كان يمتلك جملاً، ويقوده بنفسه، بل ويؤجره كذلك لمن يرغب في نقل الأحمال الثقيلة التي يستعصي حملها على أكبرها بغل في البلد!!

لكن السبب الأهم في بقاء أهل البلد لعرفات، هو أنه كان رجلاً مفترياً فعلاً، وكان ذلك واضحاً من طريقة تعامله مع أولاده التسعة من زوجاته الثلاث، فالرجل كان جملاً بشرياً بالفعل، ويبدو أن هذا هو ما أخاف منه الجمل الحيوان!!
وفي جميع الحالات، كان عرفات هو القائد للجمل دائماً، ويستطيع بكل سهولة أن يقول للجمل "نخ"، فلا يكذب الجمل خيراً وينخ، وسط ذهول وإعجاب كل أهل البلد .

ولأن جمل عرفات كان من النوع الكبير، ذي السنم الواحد العالي، ويبدو كجبل متحرك عندما ينتقل بين الحقول، لهذا سماه أطفال البلد "جبل عرفات"، ثم تحولت على السنة الجميع إلى "جمل عرفات"، ومن هنا جاءت تسميته بـ"عرفات" بدءاً من إسماعيل!!

ومشوار حياة عرفات نحو امتهان هذه المهنة، ودخوله إلى كار "الجمالة" الغريب على الفلاحين من أمثاله، فقد ظلت المهنة حكراً على العرباوية من البدو الرحل، الذين يطوفون في البلاد وكل يوم في بلد، حتى استقروا في تلك القرية فترة من الزمن، واستولوا على الأراضي الفضاء فيها بوضع اليد، بعد أن يقيموا فيها الخيام والموالد، ثم تتواتر الإشاعات عنهم وعن نسائهم اللاتي يعملن أعمالاً "مش ولا بد"، ولا يرضى عنها أهل القرية ونسائهن الحرائر، بداية من السحر وضرب الودع، وحتى المقدر والمكتوب على بنات العرباوية، تحت سمع وبصر رجالهن الذين لا يجدون غضاضة في ذلك، طالما أنهن يكسبن الأموال لهم، خصوصاً أن الرجال أنفسهم يشتهرون بالسرقعة والنهب ولعب القمار .

لكن وحده عرفات هو الذي اقتحم عليهم كار الجمالة، وقد كان القمار هو طريقه للنفوذ إلى عالم العرباوية الغامض، إذ كان عرفات شقياً جداً في شرح شبابه، ورغم كونه فلاحاً وتبدو عليه البساطة، لكنه كان من النوع الذي يرسلك إلى الترعة، ثم تعود إليه وببيدك القلعة، فيشرب هو ثم يتركك عطشان!!

واستطاع عرفات، الشاب آن ذاك، أن يكسب من لعب

القمار مع العرباوية جملاً ذكراً، كان هو نواته في بناء مستقبله في القرية، بعد أن نجح في التخلص من العرباوية أنفسهم، باستنفاً كل أهل البلد عليهم لكونهم يأتون المنكرات عيني عينك، غير عابئين بتقاليد البلد وشعبها المؤمن، ورغم أنه لم يكن أبداً في طليعة المهاجمين للوجود العرباوي، واستيطانه لأرض البلد دون استئذان، فإنه كان المحرك الرئيسي لعملية تخليص البلد منهم، وطردهم شر طردة من أرض البلد الطاهرة، وبدا كأنه يدير كل شيء، رغم أنه ظل مختبئاً في الحظيرة التي أخفى فيها الجمل طوال المعركة، حتى استتبت الأمور وظهر بالجمل أخيراً، في مجتمع القرية، بعد أن أعلن أنه قد غنمه من العرباوية الكفار، عندما هربوا بهزيمتهم من البلد، مما أكسبه شهرة وجسارة تحاكي بها الجميع .

وكما كان عرفات ماهراً في تحريك الناس، وتجميعهم نحو الهدف الذي يريده، حتى دون أن يشاركهم فيه، بل وإيهامهم أنه كان في الطليعة، فقد استطاع كذلك السيطرة على الجمل، وصار الجمل مثل العجينة في يديه، وبدأ يستخدمه في خدمة أهل البلد، نظير أجر متفق عليه، مما جعله من الأثرياء المعدودين، فلم يعد في البلدة "باشا" أو حتى "بك"، من أولئك الإقطاعيين وارثي الثروات الضخمة، ومرت الأيام بعرفات وهو يحتكر نقل كل الأحمال في البلد، ورغم أنه كان يغالي في تسعيرة تأجير الجمل، فإنهم كانوا يرضخون له ويدفعون، فمن مثله يقدر على قيادة جمل يحمل كل تلك الأحمال، من أهل هذه البلدة الجبناء .

بدأ الجمل يكبر في السن مع توالي الأيام، مثله مثل

عرفات تماماً، ولم يعد الجمل قادراً على حمل كل تلك الأحمال، خصوصاً أن عرفات كان يقسو عليه كثيراً ويضربه بلا رحمة، وأحياناً بلا سبب، كما ترك مهمة جمع الأجرة لأولاده، خصوصاً لابنه الأكبر "بهاء" الذي ضج منه كل أهل البلد، ومن باقي أشقائه بسبب طمعهم في ثروة أهل البلد، وفي والدهم عرفات نفسه الذي زاد مرضه وأصبح بنصف رجل في الدنيا، ويرجل ونصف في الآخرة .

ولما أحس عرفات باتصراف أهل البلد عنه، خصوصاً مع ورود أخبار عن اقتراب قدوم "الفواخري"، وهو أحد أبناء الغائبين عن القرية منذ زمن، وقد كون ثروة لا بأس بها، فتواترت أخبار عنه بأنه قادم ومعه "جرار" زراعي بمقطورة، سوف تنهي أسطورة جمل عرفات، وقد روج لمجيبه مجموعة من الشباب في البلد، وهنا انتفض عرفات وانتفض أولاده أكثر، خصوصاً ابنه الأصغر "كمال" الطامع في وراثة مهنة أبيه، والذي لم يهدأ له بال، حتى قطع الطريق المؤدي إلى البلد، حتى لا يستطيع الجرار بمقطورته الكبيرة دخولها، كما سرب إشاعات مفبركة عن علاقة الفواخري بالعرباوية، وأنه متزوج من أحد نساتهم، وسوف يسمح لهم بالعودة، لتمتلى البلد مرة أخرى بالنجاسة، وقد صدق تلك الشائعات كثير من أهل البلد، خصوصاً مع كرههم البالغ للعرباوية .

وفي خضم صراع أبناء عرفات مع الفواخري، لم يلتفت أحد منهم للمشكلة الأكبر التي نسوها، أو تغافلوا عنها، وهي مشكلة الجمل ذاته، الذي شاخ ولم يعد يحتمل كل تلك الأثقال، حتى صحوا في يوم نحس لهم، فوجدوا المفاجأة المعجزة التي

لم يكن يتوقعها أحد منهم بالفعل!!

كان عرفات قد انهك في ضرب الجمل بالعصا، بعد أن حرن به في أحد أجران القش، ولم يستطع الجمل الحركة رغم الضرب، رغم أن فوق ظهره حمل قش صغيراً، وهو الذي كان يحمل قبل ذلك خمسة قناطير من القطن، ومن فوقها عرفات نفسه، وبلا أدنى تعب، فانهال عليه عرفات ضرباً بالعصا، وبلا رحمة، حتى نزف الجمل دماءً من رقبته، فألقى الجمل بما فوق ظهره من حمل على الأرض، ثم وثب على عرفات نفسه وعقره بأسنانه، حتى لفظ عرفات أنفاسه الأخيرة .

ثم مال الجمل على عرفات في أسي، وبدا وكأنه يبكي عليه، بعد أن تساقطت الدموع من عينيه، لكن دموعه المتساقطة كانت أقل كثيراً، من الدماء التي نزفت من رقبته!!

تمت

الفهرس

- ١ - على حافة الجنة ٣
- ٢ - راديو ترانستور ١٢
- ٣ - رقصة الأراجوز الأخيرة ١٧
- ٤ - كوابيس الإمام ٢٢
- ٥ - المغاوري يضحك أخيراً ٢٨
- ٦ - باب الله ٣٥
- ٧ - عودة إيجيليانا ٤٢
- ٨ - فندق المحروسة ٥١
- ٩ - من الذي قتل الإمام؟! ٥٩
- ١٠ - البلعوطي بين حكم التاريخ وزنقة الفسيخ ٦٦
- ١١ - الذكرى السنوية لكسر ماسورة الحنفية ٧٣
- ١٢ - في انتظار كتابة المحضر ٨٠
- ١٣ - الغرباء ٨٧
- ١٤ - فلثاؤوس أفندي ٩٤
- ١٥ - صراع الربع والتلاتربع ١٠٠
- ١٦ - ثورة جمل عرفات ١٠٥

